مكتبة المحبة



بقلم

القمص لوقا الأنطونى

مراجعة وتقديم

نيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

العظات الرثائية

بقلم

القمص لوقا الأنطونى

مراجعة وتقديم

نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

طبع بشركة هارمونى للطباعة
ت ٦١٠٠٤٦٤ -فاكس ٦١٠٠٧٣٠

رقم الإيداع : ٩٤/٥٥٠٥



قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية



نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

تقديم
لكتاب (**العظات الرثائية**)
للقمص لوقا الأنطونى
بقلم
الأنبا متاؤس
أسقف عام كنائس مصر القديمة

كتب العظات الرثائية قليلة جداً فى الكنيسة القبطية ، وكثيراً ما نسمع شكوى الآباء الكهنة والخدام من قلة العظات التى تلائم مناسبات الصلاة على الراقدين وفى قاعات أو سرادقات العزاء وفى مناسبات الثالث والأربعين وأثناء افتقاد البيوت التى فيها حالات وفاة ، وأيضاً للقراءة الشخصية .

لذلك أحسن الأب الموقر الراهب **القمص لوقا الأنطونى** صنعاً حينما صنف هذا الكتاب « **العظات الرثائية** » لكى يكون معيناً لخدام الكلمة ونافعاً للقراءة الشخصية لغرس روح التقوى ومخافة الله داخل النفس ، وأيضاً لزيادة الاستعداد والاهتمام بالحياة الأخرى .

يشمل الكتاب تأملات عميقة مؤثرة عن الموت ووجوب الاستعداد له ، إذ أنه حكم عام على جميع البشر بدون استثناء ، وعن غربة الإنسان فى هذا العالم . كما تكلم عن عذاب الأشرار فى الحياة الأخرى وسعادة الأبرار فى المجد المعد لهم . والذى يوصل إلى هذا كله هو الموت .

نشكر الأب الموقر **القمص لوقا الأنطونى** على تعبه وجهده ، ونرجو أن يستفيد من هذا الكتاب كل من يقرأه سواء كان خادماً أو مؤمناً عادياً ــ وأن يكون هذا الكتاب سبب بركة وتوبة واستعداد للحياة الأخرى حسب وصية عاموس النبى « استعد للقاء إلهك » (عا ٤:١٢) ، والذى يستعد ويجاهد ويغلب له وعود كثيرة من الله ، صادقة وأمينة ، مثل :

+ من يغلب فسأعطيه أن يجلس معى فى عرشى كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبى فى عرشه (رؤ ٣:٢١) .
+ من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاً ولن أمحو اسمه من سفر الحياة (رؤ ٣:٥) .
+ من يغلب يرث كل شىء ، وأنا أكون له إلهاً وهو يكون لى ابناً (رؤ ٢١:٧) .

نسأل الله أن يجعلنا دائماً مستعدين للقائه لنفوز بهذه الوعود الإلهية الصادقة . بشفاعة **أمنا الطاهرة القديسة مريم** ، وبصلوات أبينا المكرم **البابا الأنبا شنودة الثالث** آمين .

+

الأنبا متاؤس
الأسقف العام

٣٠ يناير ١٩٨٩ — **عيد نياحة القديس العظيم الأنبا أنطونيوس**
٢٢ طوبة ١٧٠٥

مقدمة الكتاب

أيها المؤمن :

اجعل الموت موضوعاً لتأملاتك . وليكن الموت مع الهداية أحب إليك من الإهمال والكسل . ليكن الموت فى الدقيقة التى فيها تكون مستعداً متقدماً فى طلب الخلاص مفضلاً عندك على ربح العمر الطويل والعالم بأسره . لأن بعد هلاك النفس لا شيء أفظع وأرعب منه . فيالسعادة من كان مستعداً ! لأن مثل هذا يلتذ بالحياة ، ويرى آخرته سلاماً ، ويفرح على فراش الموت . ولطالما سمعنا أن الرب يسوع المسيح يجعل فراش المؤمن المحتضر ليناً كريش النعام . نعم ، إننا لم نختبر ذلك فى أنفسنا لأننا لم نقف على شاطىء نهر الموت للعبور ، لكن ربما شاهدناه فيمن وقفوا على ذلك الشاطىء . [وكنت شاهد عيان ساعة انتقال أبى بالجسد ــ السيد الوالد المرحوم **منصور بشارة يوسف** ــ الذى عند احتضاره أخذ ينادى ويناجى السيدة **والدة الإله القديسة الطاهرة مريم** بصوت مسموع بقوله : **ياعذراء .. ياعذارء .. يأم النور** . وذلك لمدة نصف ساعة تقريباً . وبعدها أسلم روحه الطاهرة لخالقة فى سلام وأمان ، مساء الخميس الموافق ١٩٨٠/٧/٤] .. وأعتقد أن أكثركم رأى أن آخرة المستعدين لمقابلة الموت سلام . وإننا منذ الطفولة رأينا الكثيرين من القديسين فى آخر ساعات حياتهم منتصرين على الموت ولهم سلام عظيم . أجسادهم على الأرض وأرواحهم مسرعة إلى الفوز بنيل المجد فى الحضرة الإلهية . فإنهم كانوا على أهبة الاستعداد للمضى إلى العالم الأبدى .

فلهذا أيها المؤمن عندما تشاهد معارك الجهاد مع إبليس وأعوانه والجسد وشهواته والعالم وملذاته ، عندما ترى من المخاوف والمناظر المرعبة فى هذا العالم التى تقشعر منها الأبدان وتصطك لها الأسنان ، ابرز إلى ساحة الميدان وشمر عن ساعد الجد وساق الجهاد محارباً ومستعداً .

إن ساعة موتنا قريبة . فمهما كان ارتباطنا بهذا العالم ، لابد أن نتركه متوجهين إلى الأبدية المجهولة . إننا فى هذا العالم لسنا سوى غرباء ونزلاء ، وقلما رأينا ما يسرنا فى هذه الأرض الغريبة ، لأن كنوزنا فوق . ومن أحسن مسرات نفوسنا أن ترتفع إلى حيث قلوبنا . والمؤمن الحقيقى هو الذى لا يحزن على ترك هذا العالم .

فياله من تغافل مميت ومهلك يستدعى كل الالتفات والاهتمام : إن موعد حدوث الموت غير معروف لدينا . لأنه من ذا يعلم هل يموت شيخاً أو شاباً ؟ بضعف القوة رويداً رويداً أم فجأة ؟ هل يموت بين الناس أم فى البرارى المقفرة ؟ فالموت لا يزال موجهاً سهامه نحونا . فكن إذن على حذر ، مستعداً دائماً . إن الإسرائيليين ، إذ كانوا يجهلون وقت سفرهم ، استمروا مستعدين دائماً للسفر مدة الأربعين سنة التى مكثوها فى البرية . هكذا فما أدراك متى يكون رحيلك ؟

قد تكون الآن فى صحة جيدة ، غير أنه يحتمل أن تموت غداً . فهل تؤخر الفرصة لوقت آخر وحياتك غير معلومة لديك . تأمل الناس فى أيام نوح .. طالما استخفوا بإنذاره ، ضاحكين ، حتى أدركهم فجأة الطوفان ، وغرق جميعهم . وما كان سكان سادوم يخافون أن تحل بهم نقمة من الله حتى أمطر عليهم الرب طوفان النار والكبريت . فلهذا أنت المؤمن محكوم عليك بالموت . وأما ساعته فليس لك علم وقد يحدث أن تكون فى نفس هذا النهار . فلماذا تؤخر استعدادك ؟

الرب يسوع ينذرك ويقرع اليوم بابك ، وربما الموت يقرع غداً . فإن كنت لا تفتح لحبيبك الأعز ، بل تبقيه خارجاً ، ربما ينزل الموت ويدخل بغتة ويسرع بك إلى الديان .

إذن ، فإن شئنا أن نموت فى الرب « طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب » (رؤ ١٤:١٣) ، فلا بد لنا من السهر والاستعداد . ولذا فقد أوصانا الرب يسوع قائلاً : « اسهروا إذن فإنكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة » (مت ٢٥:١٣) .

لنحيا نحن ، أيها الإخوة ، بروح الإيمان والتقوى ، حسبما رسم لنا الرب يسوع فى إنجيله المقدس ، ولنكسرن منذ الآن شوكة الموت وغلبته — وغلبة الموت الخطيئة — فنحظى بالحياة الأبدية وقيامة مجيدة فى اليوم الأخير ، وهو ما أتمناه لكم ولى بنعمة الرب قاهر الموت والجحيم .

بشفاعة **أمنا الطاهرة القديسة مريم** ، وأبينا القديس العظيم **الأنبا أنطونيوس** ، وبصلوات أبينا المكرم الطوباوى **قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث** ، وشريكه فى الخدمة الرسولية **نيافة الأنبا متاؤس** الأسقف العام . آمين .

القمص لوقا الأنطونى

٢٧ مـــارس ١٩٨٨ — **عيد نياحة لعازر حبيب الرب .**
١٧ برمهات ١٧٠٤

العظة الأولى

الحق عن الموت

« ... وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس »
(رو ٥ :١٢)

إن جاز يوماً أن نقول عن شيء أنه ميت ، فمن الطبيعي أن يكون لهذا الشيء حياة من قبل . الموت هو غياب الحياة والانفصال عن مصدرها .

قصد الله أن يكون الإنسان حياً حينما خلقه ، وهذا ما يعلنه الوحي « ... ونفخ فى أنفه نسمة حياة . فصار آدم نفساً حية » (تك ٢ :٧) . خلقه هكذا ليشاركه الحياة الأبدية . لكن حينما دخلت الخطية إلى العالم دخل معها الموت أيضاً (تك ٢ :١٧؛ رو ٥ :١٢) أو ، بتعبير آخر ، صار الإنسان المخلوق الحى محكوماً عليه بالموت لأن « أجرة الخطية موت » (رو ٦ :٢٣) .

يمكننا أن نتعرف على ما تعنيه كلمة « موت » من خلال المفاهيم الآتية :

١ ـــ الموت الطبيعى :

الإنسان وحدة متكاملة مكونة من الجسد والنفس والروح ، ويظل الجسد حياً طالما هو متحد بالروح . وهذا ما أعلنه الوحى على فم الرسول يعقوب « ... كما أن الجسد بدون روح ميت ... » (يع ٢ :٢٦) . يحدث الموت الطبيعى عندما تفارق الروح الجسد (يو ١٩ :٣٠) .

٢ ـــ الموت الروحى :

الإنسان السالك فى الخطية هو فى حالة موت (أف ٢ :١،٥) ، (كو ٢ :١٣) . إن روح الخاطىء ميتة لأنها منفصلة عن الله مصدر حياتها (أف ٤ :١٨) . انفصال الخطاة عن الله يفقدهم حياتهم الروحية ، ولا يمكن أن يعودوا أحياء ثانية إلا إذا قبلوا الحياة الأبدية فى المسيح يسوع (أف ٢ :٥) .

٣ ــ الموت الأبدى :

هو يوم دينونة الأشرار ، اليوم الذى يحكم فيه عليهم بالموت جسداً وروحاً فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت (رؤ ٢٠:١٤،١٥؛ رؤ ٢١:٨) .

الموت هنا لا يعنى فقط الإبادة أو المحو من الوجود بقدر ما هو انفصال أبدى عن الله ، يستحيل إصلاحه (مت ٢٣:٧؛ مت ٢٥:١٢؛ ٢تس ١:٧ــ١٠) .

وبنعمة الله سنركز بصورة مفصلة على التعليم الكتابى بالنسبة للموت الطبيعى . سوف نرى كيف أنه عقاب طبيعى للخطية ، وبقدر ما هو عدو مرعب نخافه بقدر ما تمكن يسوع المسيح من هزيمته .

أولاً ــ الموت كعقاب للخطية :

الكتاب المقدس يُعلم بوضوح أن الموت نتيجة وعقاب مؤكد ومباشر من الله لخطية الإنسان . منذ البدء كان تعليم الله لآدم وحواء واضحاً كل الوضوح عند هذا الأمر « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت » (تك ٢:٧) . وهذا ما أعلنه الرب أيضاً على فم رسله ، إذ يقول الرسول بولس « ... الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت لا يفعلونها فقط بل أيضاً يسرون بالذين يعملون » (رو ١:٣٢؛ رو ٦:٢٣؛ رو ٨:١٠) . ويعقوب الرسول يقدم نفس الحقيقة فى تسلسل ممتع فيقول : « ... ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية ، والخطية إذا كملت تنتج موتاً » (يع ١:١٥) .

من الآيات السابقة نستنتج أن الموت لم يقع على الإنسان لأن هذا هو النظام الطبيعى ، لكنه وقع على الإنسان كعقاب على خطاياه ، وبسبب آدم الذى أدخل الخطية إلى العالم . لقد حل هذا العقاب على الجميع ، لهذا نحن نرى الجميع يموتون .

قيامة الإنسان من هذا الموت مرتبطة أساساً بخلاصه من خطاياه بعمل دم المسيح . من الواضح إذن أن موت الإنسان ليس شيئاً طبيعياً أو عادياً . فالإنسان لم يخلق لكى يموت ككل كائن حى فى الطبيعة ، لكن لعنة الموت حلت على الإنسان عندما دخلت الخطية إلى العالم ، أى أن الموت عقاب للخطية .

ثانياً ـــ الموت عدو :

حينما يموت الإنسان فإن هذا لا يعنى إطلاقاً أنه خضع للمنهج الطبيعى الذى ينبغى أن تخضع له كل الكائنات الحية بل ، على العكس من ذلك ، هو مغلوب على أمره وخاضع لقوة غريبة وعدو غير مشفق اسمه الموت .

السيد المسيح فى إنجيل متى (١٨:١٦) يصور الكنيسة على أنها ملجأ وحصن يضمن حمايتنا من الموت (أبواب الجحيم) . والرسول بولس فى (١كو ٢٦،٢٥:١٥) يتحدث عن الموت كعدو هزمه المسيح بقيامته من بين الأموات ، ويهزمه أيضاً فى القيامة الأخيرة .

لابد من أن نقبل الموت ، لكن لابد فى نفس الوقت من أن نُدرك أيضاً أنه ليس بالشيء المحبب لنفوس الأشرار . لكنه موعد الله الكريم للأبرار « إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز ٤:٢٣) . على أية حال « مخيف هو الوقوع بين يدى الله الحى » (عب ٣١:١٠) .

ثالثاً ـــ الموت عدو مهزوم :

إن المسيحيين الحقيقيين لا يخافون الموت ! وهذا صحيح .. نحن لا نخاف الموت لأن المسيح حررنا منه (عب ١٥،١٤:٢) . إنجيل المسيح يُعلن لنا حقيقة واحدة تقول « لقد انهزم الموت عدونا » ، لا يزالِ الموت عدواً ، لكن المسيح جعله عدواً مهزوماً . صلب المسيح وقيامته قهرا الموت (رو ١٨،١٧:١) . إيماننا بالمسيح يمكننا من التمتع بامتياز المشاركة فى قهر عدونا المرعب ، الموت .

كل إنسان بعيد عن نعمة المسيح يحتاج بإلحاح أن يُدرك ويعرف حقيقة الموت ورعب الدينونة التى تنتظره بعد الموت . الوسيلة الوحيدة للتحرر من هذا الخوف هى التمتع بخلاص الله فى المسيح يسوع ، وهذا واضح فى قصة الفداء كلها التى تُقدم حلاً إلهياً كاملاً لمشكلة الموت الروحى والأبدى والجسدى .

ولربنا ولإلهنا المجد دائماً أبدياً آمين .

العظة الثانية

ذكـر المـوت

« فى جميع أعمالك اذكر أواخرك ، فلن تخطىء إلى الأبد »
(سى ٧ : ٤٠)

إنه لا يكاد يمر يوم دون أن نشاهد مشهداً من مشاهد الموت المؤثرة .

قد تقولون إنها سُنة الحياة ، ومن ثمَّ فلا عجب . أجل ، لا عجب فى توديع الميت ودفنه ، لأن ذلك واجب وفعل رحمة . بل العجب هو أن نرى ما يثير الأشجان ، ولا شجون ولا أحزان ... وما يحملنا على التأمل والتفكير ، ولا تأمل ولا تفكير . أو إذا ما تأثرنا أو فكرنا قليلاً ، فإلى حين ، دون أن نعتبر أو نغير شيئاً من نهج حياتنا وسلوكنا !

هذا فى حين أن الموت ينبغى أن يكون مدرسة ، نفيد منها للحياة والخلاص . ذلك هو تعليم الروح القدس ، وتلك هى نصيحته : « فى جميع أعمالك اذكر أواخرك ، فلن تخطىء إلى الأبد » (سى ٧ : ٤٠) .

ولما كان ذكر الموت هو عبرة وهو مدرسة ، ومن ثم كفيل بأن يبدد ما يعمى بصيرتنا من أوهام وغواية ، فجدير بنا أن نتأمل معاً هذه الحقيقة ملياً .

والآن ، فما الذى نعرفه عن الموت ؟.. إن الذى نعرفه عنه هو أنه عقاب لا مفر منه . ومن ثم ، فإنه ــ عاجلاً أو آجلاً ــ لابد من أن ينقض علينا انقضاض الصاعقة ، ربما دون أن يكون لنا من الوقت ما يكفى لإصدار فعل ندامة .

يقول بولس الرسول : « بإنسان واحد دخلت الخطية العالم ، وبالخطية الموت . وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥ : ١٢) أى أبينا آدم . إذ كما يقول الرسول فى نفس الرسالة إلى الرومانيين : « لأن أجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) .

وعلى ذلك نقول إن الموت ليس من صنع الخالق بل من صنع المخلوق . وقبل أن يكون من صنع الإنسان الذى تعدى على الوصية ، هو من صنع إبليس ، الذى حرض الإنسان على ذلك التعدى وعلى المعصية . ولذا يقول سفر الحكمة : « إن الله خلق

الإنسان خالداً ، وصنعه على صورة ذاته . لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم » (حك ٢:٢٣،٢٤) .

هذا ، ولسنا هنا فى حاجة إلى إثبات حقيقة الموت ، وهو الأمر الذى يؤكده لنا الكتاب المقدس بوضوح . يقول الحكيم ابن سيراخ : « كل جسد يبلى مثل الثوب ، لأن العهد من البدء أنه يموت موتاً » (سى ١٤:١٨) .

ويقول الجامعة ، وهو سليمان الحكيم « ليس لأحد سلطان على الروح فيضبطه ، ولا سلطان على يوم الموت » (جا ٨:٨) . ويقول داود النبى المرتل : « أى إنسان يحيا ولا يرى الموت ، ومن ينجى نفسه من يد الجحيم » (مز ٨٨:٤٩) ، أى من الهاوية . والهاوية هنا هى بمعنى حفرة القبر .

ويقول القديس بولس فى رسالته إلى العبرانيين : « وضع للناس أن يموتوا مرة واحدة ، ثم بعد ذلك الدينونة » (عب ٩:٢٧) .

يؤكد حقيقة الموت أيضاً تاريخ البشرية فى كل زمانٍ ومكانٍ . وها هى يد الدهر تسطر ذلك التاريخ ، كل يوم ، بألوف الوفيات من كل جنس وسن ، دون أن يكون هناك ما يقى الإنسان ذلك المصير الذى لا يفيد فيه علاج ، ولا تدابير صحية ، ولا احتياطات وقائية ، أياً كان نوعها .

ثم ماذا نعرف عن الموت أيضاً ؟.. إننا نعرف أيضاً أنه يأتى مرة واحدة ، لا غير . وهذا هو أفظع ما فى الموت . أجل ، سأموت من غير شك ، ولكننى لن أموت إلا مرة واحدة ! وهنا يكمن الخطر الحقيقى ، لأنى لو كنت أموت مرتين مثلاً ، فإذا ما أخطأت هدفى فى المرة الأولى وهلكت ، فإنى أصلح ما فات ، وأعد عدتى لكى لا أهلك فى المرة الثانية . ولكن ، الحال إنى لا أموت إلا مرة واحدة .

فإن خلصت ، كان ذلك سعادة عظمى لى . ولكن إن باغتنى الموت وأنا فى حالة لا ترضى الله ، فإنى أهلك لا محالة ، ويزج بى فى جهنم النار إلى الأبد ، ولا منقذ ولا معين .

وإذن ، فما الموت سوى تلك الساعة الهائلة الرهيبة ، التى فيها يتقرر مصير الإنسان الأبدى ، قراراً لا رجعة فيه . يقول الكتاب المقدس : « إذا وقعت الشجرة جهة الجنوب ، أو جهة الشمال ، فحيث تقع الشجرة هناك تكون » (جا ١١:٣) .

أخيراً ، ماذا نعرف عن الموت ؟.. إننا نعرف عنه أنه سيفصلنا ، لا محالة ، عن كل ما يحيط بنا من أُناس وأشياء . ومن ثم ، لا عن ممتلكاتنا وثروتنا ومقتنياتنا فحسب ،

بل وعن الأصدقاء وكل الأحباء أيضاً .. عن الأهل والمعارف ، الذين هم سبب فرح وتعزية لنا .. عن الألقاب والمناصب ، التى ربما حصلنا عليها بشق الأنفس .. عن كل الملذات .. عن دواعى الفرح والمسرات جميعها .

إلا أن الموت سيفصلنا أيضاً عن مصاعبنا ومتاعبنا وهمومنا ومشاكلنا .. عن أوجاعنا وأمراضنا وأحزاننا . ومن ثم فمن الجهل والغباوة أن نتعلق تعلقاً شديداً بخيرات هذه الدنيا الفانية ، أو نحزن لشرورها حزناً مفرطاً . فكل ما فيها من خيرات وشرور مآله الزوال .

ولكن ، ألا يترك الموت لنا شيئاً ؟ نعم . إنه يترك لنا الخير الذى فعلناه ، أو الشر الذى صنعناه .. يترك لنا أعمال الفضيلة التى مارسناها ، أو أعمال الرذيلة التى استسلمنا لها . فكما أن « الذين يموتون فى الرب .. أعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٣:١٤) ، كذلك الأشرار ، أعمالهم الشريرة هى من غير شك تتبعهم . إذ ينبغى أن يُدان « كل واحد بحسب أعماله » (رؤ ١٣:٢٠) .

على أن سبباً من الأسباب التى تجعل الموت مخيفاً ورهيباً هو أن ساعته مجهولة « يقول سفر الجامعة : « إن الإنسان لا يعلم وقته . فإنه كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة ، وكالعصافير التى تصطاد بفخاخ . كذلك يُقتنص بنو البشر وقت السوء ، إذ يغشاهم بغتة » (جا ١٢:٩) .

ولذا يوصينا السيد المسيح قائلاً : « اسهروا إذن فإنكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة » (مت ١٣:٢٥) . وأيضاً « كونوا مستعدين ، لأن ابن البشر يأتى فى ساعة لا تعلمونها » (لو ٤٠:١٢) . معنى ذلك أنه ينبغى أن نكون على أهبة الاستعداد للرحيل من هذا العالم ، فى كل لحظة وحين ، لأن « يوم الرب هكذا يأتى كاللص » (٢تس ٢:٢) .

وكما أننا نجهل ساعة الموت ، كذلك لا نعرف إن كنا نموت ونحن فى حال النعمة أم فى حال الخطية . ولكن الاختبار يعلمنا بأن الإنسان يموت كما عاش . تلك سُنة تتحقق باطراد . يكاد لا يُخطىء . فإن عشت عيشة صالحة ، مت ميتة صالحة . وإن عشت عيشة طالحة ، مت ميتة طالحة شريرة .

يقول القديس بولس الرسول : « إن كان رجاؤنا فى المسيح فى هذه الحياة فقط ، فنحن أشقى الناس أجمعين . ولكن الآن قد قام المسيح من بين الأموات ، وهو باكورة الراقدين » (١كو ١٥:١٩، ٢٠) ومن ثم فكما قام هو منتصراً على الموت وعلى الجحيم ، نقوم نحن أيضاً تلاميذه وأتباعه المؤمنين .

ومادام الأمر كذلك فلا داعى للاضطراب والخوف أمام الموت . الذى أصبح ، بعد انتصار المسيح عليه ، وسيلتنا لدخول الحياة الأبدية . أكثر من ذلك ، يجب ، على مثال القديسين ، أن نشتاق إلى الموت ونرحب به . ذلك لأن يوم الموت بالنسبة للمؤمن ، كما يقول صاحب سفر الجامعة فى (٢:٧) ، هو خيرٌ من يوم الولادة .

ولا عجب ، لأن الموت فى الواقع يلدنا نحن المؤمنين إلى حياة جديدة ، أفضل وأسمى بما لا يقاس من الحياة الحاضرة . تلك هى حياة الخلد والمجد الأبدى فى السماء .

ولذا يقول القديس بولس الرسول : « فإنا نعلم أنه إذا نُقض بيت مسكننا الأرضى (بالموت) ، فلنا بناء من الله ، بيت لم تصنعه الأيدى ، أبدى فى السماوات . فلذلك نحن متشوقون أن نلبس بيتنا الذى من السماء » (٢كو ٥:١،٢) . إذن ، فإن الموت للمؤمن ليس خسارة ، كما قد يظن البعض خطأً ، بل ربح ، وأى ربح . يقول الرسول : « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح » (فى ١:٢١) .

أجل ، إن الموت مخوف . ولكنه فى الواقع لا يُخيف إلا الأشرار . يقول الحكيم بن سيراخ : « أيها الموت ، ما أشد مرارة ذكرك على الإنسان المتقلب فى السلام ، فيما بين أمواله ، على الرجل الذى لا تتجاذبه الهموم ، الموفق فى كل أمر ، القادر على التلذذ بالطعام » (سى ٤١:١ــ٣) .

أما بالنسبة للبار فذكر الموت حلو لذيذ ، لأنه على يقين أنه إذا ما فارق هذه الحياة الشقية يستقر فى الراحة : « أما الصديق فإنه وإن تعجله الموت يستقر فى الراحة » (حك ٤:٧) . وقد كتب صاحب سفر الرؤيا ، وهو يوحنا الحبيب : « طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب ، إنهم من الآن يستريحون من أتعابهم ، وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤:١٣) .

ولما كان الموت يعلمنا بأن كل شىء فإنٍ وزائل ، ما خلا محبة الله وخدمته وطلب مجده ، فلنقصدن من الآن فصاعداً بأن نجرد أنفسنا من كل تعلق باطل بالدنيا الفانية ، وأن نكنز لنا كنوزاً فى السماء ، حيث الخلود والسعادة الدائمة وذلك بمحاربة الخطية محاربة لا هوادة فيها ، وممارسة الفضيلة ، ولا سيما التواضع . والصبر على الشدائد ، حتى إذا أبلينا بلاءً حسناً فى الجهاد الموضوع أمامنا ، سمعنا الديان العادل يقول لنا : « نعماً أيها العبد الصالح والأمين . كنت أميناً فى القليل فأقيمك على الكثير . ادخل إلى فرح سيدك » (مت ٢٥:٢١) .

وله المجد دائماً آمين .

العظة الثالثة

التأمل فى الموت

« ... إن متنا فللرب نموت »
(رو ١٤ :٨)

يولد الطفل ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمستقبله . أيكون عظيماً أم حقيراً ، غنياً أم فقيراً ، صالحاً أم شريراً ، صحيحاً أم سقيما ، طويل العمر أم قصيره . كل ذلك مجهول لدى الإنسان ، ولكن كل إنسان يعرف أنه لابد أن يموت ، لأن الموت هو طريق الناس جميعاً (١صم ٢:٢) وهو محتم على الجميع ــ سواء منهم الملوك والأمراء ، الأغنياء والفقراء ، العلماء والجهلاء . ومهما طالت حياة الإنسان فلابد من شرب كأس الحمام . وسيترك كل واحد وراءه ما قد جمع ، ولن ينال الإنسان من الدنيا سوى قطعة أرض تضم عظامه البالية تحتويه دون أن يمتلكها . إن الموت لا يخشى سطوة الملوك ولا بأس الجبابرة ، يهجم على القوى كما يأتى على الضعيف ، ولا يقوى البطش أن يمنعه ولا المال والجاه أن يؤخر ساعته . إن اشتعلت النار يمكن إخمادها ، وإذا نشبت الحرب يمكن الحد من سعيرها . نستطيع مقاومة النيران الملتهبة والأمواج الصاخبة وصد قوة الملوك المقتدرين . ولكن الموت لا يستطيع أحد أن يقاومه أو يدفعه ، لأنه جبار قوى غالب . لا يخاف الغنى ولا يهاب الحراس والجنود ، ولا تمنعه أسوار ولا جدران ، لا تصده معاقل ، ولا تدفعه حصون ، لا يجبن أمام السطوة والعظمة ، ولا يكرم البرفير والأرجوان . لا يشفق على الشباب ، ولا يرق لضعف الشيوخ . لا تلينه دموع الأمهات ولايتم الأولاد ، ولا يحجم من أجل الأصدقاء والخلان .

انظر إلى رجل جبار قوى البنية ، تكسوه نضارة الشباب ، وتتلألأ فى وجهه علامات الصحة ، ثم بعد قليل انظر إلى ذلك الوجه الصبوح تَره وقد استحال إلى اصفرار . تأمل العينين النجلاوين تجدهما وقد غارتا ، واليدين وقد ارتختا ، والرجلين وقد توقفتا عن الحركة . ثم ترى أخيراً ذلك الجسد القوى وقد صار جثة هامدة ، لا حراك فيها . تمهل قليلاً تجد الذى كان يطأ الأرض بقدميه قد وطئته الأرض وطواه الثرى ، والذى كنت تخشاه وتأخذك هيبته قد أُنزل فى حفرة ضيقة ، وانهالت عليه

الأتربة وتراكمت الرمال وبعد ذلك تراه يستحيل إلى عظام نخرة يأكلها السوس ويفسدها الدود وتنبعث منها الروائح الكريهة ، ولسان حاله يقول للفساد أنت أبى ، وللدود أنت أختى وأمى ، والموت مسرع كأنه يمتطى جواداً أشهب اللون ، وبيده منجل يحصد به السنبل الضعيف اليابس ، كما يقطع زهور الربيع الخضراء اليانعة . لم يرحم إبراهيم لقداسته وعظم إيمانه ، ولا يوسف لعفته ، ولا سليمان لحكمته ، ولا شمشون لقوته ، ولا داود لبره ، ولا راحيل لجمالها ، ولا استير لغيرتها ، بل الجميع عنده سواسية ، وهو قريب من كل أحد . فلا تظن أن رفاهيتك وتلذذك وعنايتك بصحتك يجعلك فى مأمن من هجومه عليك . فما كان أبشالوم يظن أن جمال شعره سيكون سبباً لموته ، وما كان هامان يتخيل أن يصلب على الخشبة التى أعدها لمردخاى عدوه ، ولا خطر على بال جليات أن يموت بحجر وتقطع رأسه بذات سيفه بيد داود الفتى الصغير ، ولم يجل بخاطر بلشاصر أن يموت وهو يتمتع باللذة على مائدته . والرجل الغنى الذى كان يعد خيراته لنفسه ويقول « يانفسُ لكِ خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة » لم يدر أنه يسمع الصوت حالاً قائلاً : « ياغبى فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ، فهذه التى أعددتها لمن تكون » (لو ١٢ : ٢٠) فما بالك لا تفكر أيها الإنسان فى نهايتك ، وتتأكد أن جمالك سوف يذبل ، وجسدك الصحيح سوف يضحى رمة ، وقوتك سوف تزول ، وعيناك الجميلتان سوف يأكلهما الدود ، وأن أولئك الذين يحبونك ويشفقون عليك سيسرعون بك إلى القبر ، وتلك الأعين التى ترمقك وتلاحظك وتسهر عليك سوف تشمئز من النظر إليك ، وأصحابك وأعزاؤك سينفرون منك ؟

أعد الرب ليونان يقطينة ارتفعت فوق رأسه لتكون ظلاً له ، ففرح بها يونان فرحاً عظيماً ، ثم سخر الله دودة عند الفجر فضربت اليقطينة فيبست وضربت الشمس رأس يونان . فهذه اليقطينة كانت بنت ليلة ، إذ فى ليلة تكونت ، وفى ليلة هلكت وبادت . فهى رمز إلى فناء آمال الإنسان . وهناك تحت شجرة الحياة توجد دودة الموت التى تقضى على حياة الإنسان .

يولد الطفل فى دار الغم ، ويستهل الحياة باكياً ، ناعياً دخوله عالم الشقاء . ويعيش صبياً ففتى فشاباً فكهلاً ، إلى أن توهن الحياة قواه ، وتقصم المتاعب ظهره ، وأخيراً تنقض على روحه نسور الموت ، فتسلبه الحياة ، فيهبط هبوط البنيان ، ويروح فى قبر النسيان ، لأن تلك العناصر لابد أن تسترد جزئياتها ، وتلك الكليات لابد أن تسترجع مفرداتها .

إن طريق الموت هو الطريق الذى سلكه آباؤنا وأجدادنا من قبلنا ، وسنسلكه نحن والذين يأتون من بعدنا . أين الملوك الذين شيدوا القصور وفتحوا الممالك والأمصار ؟ أين الفلاسفة والعلماء ؟ أين العظماء وأصحاب القوة وأرباب السطوة ؟ أين القواد العظام والأبطال والجبابرة الذين قهروا العباد ؟ لقد غلبهم الموت . أين الممالك العظيمة والأمم السالفة ؟ لقد غرقت جميعها فى بحر الموت . وبادت ، ولم يبق إلا ذكرها . فتمثل الموت دائماً أمام عينيك وتأمل فيه ، فإن التأمل فى الموت حكمة عظيمة . وكلما فكرت فيه أعرضت عن خداع العالم وغروره ، وزهدت فى الدنيا ومشتهياتها ، ورغبت فى الآخرة ونعيمها .

كن دائماً حذراً وحكيما ، فإن الحياة زائلة . كن كبحار ماهر يجعل سفينته تسير حسناً .. يجلس فى مؤخرها عند الدفة ويوجهها كيفما شاء . فانظر أنت أيضاً إلى آخرة حياتك ونهايتك لتكون سائر أحوالك مستقيمة ، ولا تغرقك زوابع العالم . وإن نسيت ذلك وتغافلت عنه ، فلا تنس أنه سيأتى عليك وقت فيه تقف أمام الموت جزعا ، رضيت أو أبيت . حينئذ تعرف ، ولا فائدة فى المعرفة « لأنه ما هى حياتك . إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل » (يع ٤ : ١٤) .

ولربنا المجد دائماً .

العظة الرابعة

غربة الإنسان فى العالم

« غريب أنا فى الأرض . لا تُخفِ عنى وصاياك »
(مز ١١٩ : ١٩)

أيها الأعزاء

إذا نظرنا إلى العالم ، وإذا نظرنا إلى الوجود الذى يحيط بنا ترى فيه قضايا متنوعة مختلفة . منها ما يحتاج إلى الدليل والإثبات وإقامة البراهين والحجج ، ومنها ما يثبت نفسه بنفسه — لا يحتاج إلى دليل — لأن إثباته من تلقاء ذاته . وإذا بحثنا قضايا العالم كلها ، هل نجد قضية مر عليها الجميع واستسلم إلى سلطانها وحكمها أعظم من قضية غربة الإنسان فى العالم ؟ اختلف بنو آدم فى قضايا لاهوتية كثيرة متنوعة ، فتجرأ البعض منهم إلى درجة أن قال (لا يوجد إله) . قال الوحى الإلهى : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله » (مز ١٤ : ١ ؛ ٥٣ : ١) . أنكر الجاهلون قضية أخرى وهى قيامة الأموات ، فقالوا : لأن الإنسان حياته فى جسده ، فهو يعيش ليفرح ويتلذذ ويأكل ويشرب أيام حياته ، لأن بعد الموت لا قيامة ولا بعث ، كما يعتقد منكرو قيامة الأموات . إذن ، فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت . أنكر آخرون مسألة الدينونة ومحاكمة الله لبنى البشر وظنوا أن ليس لهم ناموس . فلا دينونة يتوقعونها ولا حساب يقيمون له وزناً — يعيشون حسب أهواء نفوسهم .

نعم ، ظن كثيرون هذا الأمر . ولكن لما نأتى إلى قضية غربة الإنسان فى العالم نجد أنها قضية يخضع لها الملك والصعلوك ، الغنى والفقير ، القوى والضعيف ، العالم والجاهل ، الشيخ الذى حنكته الأيام والطفل الصغير . فالكل مجمعون على أنهم غرباء فى الأرض . فهل سمعنا [illegible] ام فى الماضى أو قائم فى الحال أو سيقوم فى المستقبل من يستطيع أن يقول أنه لا موت ؟ كلا .. ولكن كل مولودى المرأة أمام قضية الموت خاضع خاشع ، ينكر ويشك فى كثير من قضايا اللاهوت ولكن لا يستطيع أن يُظهر أى شك أمام قضية الموت ، يُقر معترفاً (غريب أنا فى الأرض) . كذلك نرى أنه منذ وجدَ آدم على هذه الأرض ، ومن الوقت الذى طُردَ فيه من حضرة الله — من

جنة عدن ــ « تعود إلى التراب لأنك تراب وإلى التراب تعود » . فكل إنسان مهما اختلف مذهبه ولغته ، ومهما تنوعت جنسيته ، هو هو مولود المرأة ، أمام قضية الموت خاضع خاشع . أرى الموت يؤثر فى المؤمنين رغير المؤمنين والملحدين وذوى الأديان ، فيمن له إله ومن يعتبر أن ليس له إله .. الجميع أمام الموت سواء .

تقدم يوماً شاب وثنى إلى أحد فلاسفة أمته وسأله متألماً متوجعاً : يامولاى ، نعم ، فى ذاتى أرغب فى الفضيلة .. لدى احساس بأننى أريد أن أكون كاملاً .. رغبتى وأمنيتى أن أسلك فى رقى النفس ، فى الكمال ، فى النعمة ، فى الفضيلة .. ففى الصباح أظهر هذه الرغبة ، وفى المساء أغرق فى النقائص والعيوب . فيامولاى هل لك من مشورة لى بها أستطيع أن أترك الرذيلة وأعتنق الفضيلة ولا أحيد عنها ؟ فماذا كانت الإجابة ؟ كانت : استشر الموتى . فقال : يامولاى ، وهل الموتى ، إذا خاطبتهم ، يسمعون ؟ وإذا استفتيتهم يعظون ؟ ما سر هذه المشورة وهذه الإجابة ؟ وما منفعة ذهابى إليهم إذا كانوا لا يجيبون ؟ فكان الجواب ثانية : استشر الموتى . ماذا أتوقع يامولاى الفيلسوف ؟ وأية إجابة أرجوها من الموتى ؟ فكان جوابه ثالثة : استشر الموتى .

فذهب إلى المقابر واجتاز فى وسطها وسار من مكان إلى مكان ولم ينطق بكلمة . هل هو قد جُنَ حتى يكلم أحجاراً صامتة غير عاقلة ؟ ولكنه نفذ المشورة . وخرج من بينها آخذاً الإجابة التي يطلبها .. وقال فى نفسه : ما أعظم وأحسن هذا الفيلسوف فبمرورى وسط مقابر الأموات تذكرت الموت فعندما أتذكر الموت ابتعد عن الشرور وألتصق التصاقاً وثيقاً كاملاً بالفضيلة والكمال . إذن ، فى تذكر الموت موانع لنا تبعدنا عن الآثام والشرور .

يتقدم داود النبى والملك ويطلب من الله طلبة جديدة قائلاً : يارب اجعل دائماً ساعة موتى أمام نظرى . لكى أبعد عن باب الشر . ويتقدم ابنه سليمان الحكيم يقول كلمة ربما جميعنا يخالفه فيها ويناقضه فيها . فماذا يقول سليمان الحكيم : « الذهاب إلى بيت الحزن أحسن من الذهاب إلى بيت الوليمة » (جا ٧:٢) . العبرة البالغة .. أرى عظة الموت تلمس أنفاسى وتنصحنى نصحاً . أرى درساً واعظاً ، بل واعظاً قديراً فى استطاعته أن يحول عنى العالم وما فيه . أرى الباكين والمشيعين يرتسمون بين عينى فأتذكر أن هذا سابق وأنا لاحق ، ولابد لى من أن أرحل .. غريب أنا فى الأرض ونزيل كسائر آبائى . ولكن ، لماذا أذهب إلى بيت الوليمة أقعد هنالك بين أضاليل

المغنين ، فتنعكس القضية أمامى ، وعوضاً عن أن أتخذ أمامى قضية عادلة يذهب عنى شعور مخافة الله والاستعداد للأبدية ؟

فهل هذا شعارنا فى حياتنا ؟ وهل هذه القضية نصب أعيننا ليلاً ونهاراً ؟ هل هى فى مرضنا كما هى فى صحتنا ؟ الكثيرون منا يزعمون أن الموت يتوقف على القوة والضعف والشيخوخة والشبوبية . ولكن ، صدقونى ، أنه لا دخل للقوة والضعف ولا للشيخوخة والشبوبية ، ولا دخل للصحة والمرض فى قضية الموت . النفس أمانة ووديعة عندنا . عندما يريد الله طلبها يأخذها ، وذلك كما يخاطب الله الغنى : فى هذه الليلة تُطلب نفسك منك ، فيأخذها . تؤخذ من القوى والسليم كما من المريض . فهل نحن دائماً واضعون أمام أعيننا صباح مساء هذه الأنشودة نلهج بها (غريبٌ أنا فى الأرض) .

ما رأيكم فى قول داود النبى :
غريبٌ أنا فى الأرض ! هل كان غريباً ؟ هل كان مضطهداً ؟ هل كان فقيراً ؟ لا ولكن كان من الوجهة الروحية نبياً . شهد الله بقوله : داود ابن يسى رجل مثل قلبى . ومن الوجهة الاجتماعية كان ملكاً عظيماً ، وأغنى ملك فى جيله . هذا الغنى ، مع ما يتمتع به كان من شأنه أن ينسيه الوطن الأبدى فهل نسيه ؟ اسمعوا ماذا قال : غريب أنا فى الأرض . أنت فى قصور ياداود . ولكن ماذا تكون القصور بجانب وطنى الأبدى ؟

نحن سكان أرض الشقاء . فهل نحن تواقون إلى الوطن السمائى ؟ يذكر الكتاب المقدس أن سمعان الشيخ . كان رجلاً باراً تقياً متواضعاً ، مخلصاً لله ، أوحى إليه الروح القدس : سمعان . سمعان . لن تذوق الموت قبل أن ترى يسوع مخلص العالم . لقد ارتبط بهذا القيد .. أصبح كعصفور فى قفص ــ صار على مضض الغربة زمناً إلى أن مر به يوسف لتتم وصايا الناموس . فنهض فرحاً (هذا هو المفتاح الذى يفك قيد غربتى) . تقدم وأخذ المسيح الرب بين يديه . وبعد أن رآه رفع عينيه إلى السماء وقال : ياسيد . الآن تطلق عبدك بسلام حسب قولك لأن عينى قد أبصرتا خلاصك تمم وعدك . فك القيد . اطلقنى كما يُطلق العصفور من القفص . طالما كنا عائشين فى هذه الأرض فنحن فى ضيق ، فى علقم ، فى مرارة . فما أسعد الوقت الذى نسمع فيه : أُطلق سراحكم . إله النعمة يملأ قلوبنا حتى نكون تواقين للوطن السمائى .

يقول بولس الرسول فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس الأصحاح الخامس العدد

السادس « فإذن نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب » . إن الإنسان الشاعر بالغربة عن أبيه ، متى تنتهى غربته ، يقفز إلى صدر أبيه . فمتى نكون تواقين ومشتاقين أن ننطلق من هذه الغربة ؟ بولس الرسول يقول : « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » فهل كل نفس تواقه أن تنطلق من هذه الغربة وتكون مع المسيح مخلصها والله فاديها لتتمتع به ويتمتع بها ؟

أخيراً أقول إن لكل غريب علامتين تميزانه عن أهل الوطن : اللغة والملبس . هكذا يقول الكتاب المقدس : لما دخل يسوع إلى دار الولاية إلى المحاكمة تبعه بطرس من بعيد . وبينما هو جالس خارج الدار قالت له جارية أنت من أهل يسوع . أنت جليلى لأن لغتك مثل لغتهم . فهل نحن معروفون لكل العالم أننا من أهل السماء ؟ فإذا قلنا إننا غرباء عن العالم فلغتنا تكذبنا . العالم يجدف ، ونحن كذلك . أقول إن كل كلمة بطالة تخرج من فم العالم خارجة من فمى . من ذا الذى يفصلنى عن العالم ؟ من ذا الذى يجعل صفتنا وألفاظنا من ألفاظ السماء ؟

ماذا يقول بولس الرسول : « ياإخوتى لا تخرج كلمة رديئة من أفواهكم بل كل ما هو صالح لبنيان الآخرين فى النعمة » . هذا ما تنطقون به . هكذا يعلمنا يسوع المسيح أنه يجب أن تكون لغتنا . لغة أهل السماء .

العلامة الثانية : الملابس . وما هو ملبس أهل السماء ؟ الحشمة والورع . فهل كل من يرانا يحكم علينا أننا من أهل السماء أو من أهل العالم ؟

أسأل إله النعمة أن يباركنا جميعاً ويملأ قلوبنا باحساسات وعواطف الغرباء بمنطقهم وملبسهم حتى نعترف حقاً أننا غرباء فى هذا العالم .

له المجد إلى الأبد آمين .

العظة الخامسة

شقاء غربتنا على الأرض وسفرنا نحو الأبدية

« ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا ننتظر العتيدة »
(عب ١٣ : ١٤)

إن هذه الأرض ليست وطننا ، وما نحن فيها سوى غرباء ونزلاء ، وما حياتنا إلا سفر نحو الأبدية ، وطريق نعبره فى الأرض للوصول إلى الوطن الباق . نحن سائحون فى هذه الدار ، وسيأتى يوم فيه تنتهى غربتنا ، ومهما طالت سياحتنا فى هذه البرية فلابد من الذهاب إلى البيت الأبدى (جا ١٢ : ٥) .

انظر أيها الحبيب وتأمل الدهور الماضية والأقوام الذين سبقونا . ألم ينته زمن غربتهم فذهبوا إلى أبديتهم وتركونا ؟ فضع نصب عينيك دائماً أننا غرباء ونزلاء مثل كل آبائنا « لأن أيامنا على الأرض ظل » (أى ٨ : ٩) . « فسر زمان غربتك بخوف » (١بط ١ : ١٧) « ارجع وأقم مع الملك لأنك غريب ومنفى أيضاً من وطنك » (٢صم ١٥ : ١٩) مادمنا فى هذه الدنيا فلن نبرح غرباء كما كان شعب الله غريباً فى أرض مصر .

تأمل هذا ، ولا تعلق قلبك بأمور باطلة ، ولا تدعه يشغف بمحبة ما هو فانٍ مع الزمان . « غير ناظرين إلى الأشياء التى تُرى بل إلى التى لا تُرى ، لأن التى تُرى وقتية وأما التى لا تُرى فأبدية » (٢كو ٤ : ١٨) . إن الجسد لا يزال أسيراً للتجارب والخطية مادامت تحاربنا فى ميدان الكفاح . وحتى الآن لم ننل الحرية ــ حرية مجد أولاد الله ، ولم نفز بإكليل النصر ، فنفوسنا لا تزال تهاب سطوة الموت . ومازلنا نجاهد ونصارع الأهواء . فإذن نحن نتوقع راحة وننتظر ساعة فيها يكف عنا التعب . نرجو حياة ليس فيها بكاء ولا عناد ولا فساد ولا هوان ولا ضعف . إننا نأمل الخلود وعدم الفساد لننال المجد المزمع أن يتجلى فينا . إننا ورثة ، ولنا ميراث فى السماء لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل . فقلوبنا ملتهبة شوقاً لأخذ الميراث الأبدى والتحرر من كل عبودية . إنما نحن سماويون غرباء على هذه الأرض . كيف نرتاح مالم نصعد إلى وطننا السعيد ونتكىء على صدر أبينا لننال فيض التعزيات الكاملة ؟ نحن هنا أشقياء

بائسون مع أننا فى الحقيقة ملوك وأبناء الملك السماوى . فكيف نرضى نحن الأمراء بالذل والهوان ؟ لا نرضى إلا بالجلوس على عروشنا ونيل مجد أولاد الله . إننا لم نتوج بعد ، ولم نلبس حتى الآن البز النقى والحُلل الملوكية التى تليق بأبناء الملوك لنجلس على كراسى المجد فى مُلك أبينا .

لذلك لا تزال قلوبنا تئن وتتنهد شوقاً إلى ظهور ذلك اليوم السعيد الذى فيه يزول كل أنين وتعب ، وتغيب أحزاننا فى تلك التعزيات التى لا تخطر على بال . وحينئذ لا نذكر الشدائد التى قاسيناها فى هذه الحياة . وما نحن إلا كالحمامة التى أطلقها نوح ، تروح وتغدو وهى لا تجد راحة حتى دخلت الفلك .

ليست هذه الحياة سوى أوقات قليلة كلها تعب وعناء « أليس جهاد للإنسان على الأرض وكأيام الأجير أيامه » (أى ٧:١) « الإنسان ، مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً . يخرج كالزهر ثم ينحسم ، ويبرح كالظل ولا يقف ... إن كانت أيامه محدودة ، وعدد أشهره عندك ، وقد عينت أجله فلا يتجاوزه ، لأن للشجرة رجاء إن قُطعت تخلف أيضاً ولا تعدم خراعيبها ، ولو قدم فى الأرض أصلها ومات فى التراب جذعها ، فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس ، أما الرجل فيموت ويبلى ، الإنسان يسلم الروح ، فأين هو » (أى ١٤ :١ــ١٠) « عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فأعلم كيف أنا زائل . هوذا جعلت أيامى أشباراً وعمرى كلا شيء قدامك ، إنما نفخة كل إنسان قد جعل ، إنما كخيال يتمشى الإنسان ، إنما باطلاً يضجون ، يذخر ذخائر ، ولا يدرى من يضمها » (مز ٣٩ :٤ــ٦) « كل جسد كعشب وكل مجد إنسان كزهر عشب . العشب يبس وزهره سقط » (١بط ١ :٢٤) « تُرجع الإنسان إلى الغبار وتقول ارجعوا يابنى آدم .. بالغداة كعشب يزول . بالغداة يزهر فيزول . عند المساء يجز فييبس ... أيام سنينا هى سبعون سنة . وإن كانت مع القوة فثمانون سنة . وأفخرها تعب وبلية . لأنها تقرض سريعاً فنطير » (مز ٩٠ :٣ــ١٠) « الإنسان أشبه بنفخة . أيامه مثل ظل عابر » (مز ١٤٤ :٤) « فما هى حياتكم ؟ إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل » (يع ٤ :١٤) .

الغريب المسافر لا بد أن يتحمل التعب والمشاق حتى يصل إلى وطنه . وفى هذا الوادى الذى نعبره ينبغى أن نحتمل شدائد كثيرة ومخاطر عدة . ولا يزال أمامك طريق طويل تسير فيه ، ومسلك ممتد لابد أن تعبره إلى أن تبلغ مدينة السلام والراحة وتصل إلى القديسين ومقر الأبرار الكاملين وكنيسة الأبكار الأطهار . فسر فى طريقك واجعل

كل اعتمادك على الله ولا ترهب عناء . سر يتبعك الإيمان ويتقدمك الرجاء وتحيط بك المحبة .

وليس أمامنا حاجز يمنعنا من الوصول إلى دار أبديتنا سوى الجسد . فإننا مادمنا مستوطنين فيه فنحن متغربون عن الرب ولكن سوف يأتى يوم فيه يُنقض هذا الحائط ويزول الحاجز ويرتفع الحجاب . وحينئذ نتمتع بالحرية ، ويتجلى لنا بهاء الرب وسناء مجده ، ونبلغ مقر الراحة الأبدية وديار الرب بالتهليل ، هاتفين « أين شوكتك ياموت ؟ أين غلبتك ياهاوية ؟ » (١كو ١٥:٥٥) « استمع صلاتى يارب واصغ إلى صراخى . لا تسكت عن دموعى . لأنى أنا غريب عندك . نزيل مثل جميع آبائى » (مز ١٢:٣٩) « غريب أنا فى الأرض . لا تخف عنى وصاياك » (مز ١٩:١١٩) .

ولك المجد دائماً .

العظة السادسة

مـا هـى حيـاتكـم ؟

« أنتم الذين لا تعرفون أمر الغد ما هى حياتكم . إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل »
(يع ٤ : ١٤)

اصطلح الناس على أننا أحياء إلى أن نموت ، وأننا عائشون حتى نوارى التراب .

واصطلح الناس أيضاً على أن هذه الدنيا تضمنا أحياء وتطوينا أمواتاً .

الحياة حقبة من الزمن قصيرة المدى . هى الفترة التى بين المهد واللحد . هى الوقت الذى نصرفه عادة من لحظة ولادتنا إلى أن نسكن القبور . هذه هى الحياة فى نظرنا نحن الأحياء .

فهل سأل كل واحد نفسه قائلاً :

يانفسى كيف عشتِ ؟ وكيف تعيشين الآن ؟ ولأى غرض تعيشين ؟

سؤال ، أيها الأعزاء ، له قيمته وله أهميته لكل نفس منا ، يقدمه لذاته ويتلمس له جواباً ولا يتغاضى عنه لحظة من الزمان .

فهل اهتممنا بهذا السؤال ؟

وهل هناك أسباب تحتم علينا أن نطالب أنفسنا بالجواب ؟

قد نتغافل عن هذا السؤال ، بل نتعامى عن مغزاه ونتجاهله لأنه من الأمور المقررة ومن القضايا الثابتة التى لا تحتاج إلى برهان لإثباته . ولكن مع ثبوته ثبوت الشمس فى وضح النهار نتناساه ولا نهتم به .

نعم ، هناك أسباب عديدة ومتباينة وهامة للغاية تحتم على كل واحد أن يسأل نفسه هذا السؤال :

السبب الأول :

إن هذه الحياة وقتية :

يخدع المرء منا فى هذه الحياة التى يحياها الآن فيظن أنها حياة ثابتة دائمة ، حياة خالدة أبدية ، لا زوال ولا نهاية لها . على أن هذا وهم خادع وغش وغرور . الوحى يكذبنا وشهادات الله والطبيعة والوجدان يقدمان لنا الأدلة والبراهين على كذب هذا الوهم ، إذ أن هذه الحياة التى نحياها الآن ما هى إلا ظل عابر ، ماؤها سراب ، وآمالها أضغاث أحلام .

يقول الوحى عنها على فم يعقوب الرسول : « ما هى حياتكم » التى تنخدعون بها وتبنون عليها الآمال والقصور العالية ؟ « هى بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل » . ارفع غطاء الوعاء يظهر البخار مرتفعاً إلى فوق ثم يختفى . هذه حياة الإنسان فى الوجود .

يتقدم إلينا شخص مختبر مدقق عرف الحياة على حقيقتها وهو أيوب الصديق ، الذى يقف أمامنا قائلاً : « مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبا » . هذه هى حياة الإنسان فى هذا الوجود ، ولكن غفلتنا وغرورنا وعدم يقظتنا نغتر فى هذه الحياة . لا نسأل كيف عشنا ، ولا نسأل كيف نعيش الآن ولا نسأل لأى غرض سنعيش ، وكأننا سكارى أو مخدرون ذلك لأن آمال العالم وأحلامه سطت علينا وأعمت عيوننا وصرفتنا عن الحقيقة وجعلتنا نظن أن التراب الزائل حقائق راهنة ثابتة .

يقف أمامنا السيد المسيح ، له المجد ، ضارباً لنا مثلاً ينطبق هذا المثال الإلهى على كثيرين ، إن لم يكن على الجميع يقول : إنسان غنى أخصبت كورته وكثرت محاصيله وتكدست وضاقت مخازنه عن أن تسع ثمرات أرضه . فجلس يناجى نفسه . ماذا أصنع ؟ ماذا أفعل ؟ آه .. تنبهت .. أدركت ماذا أصنع ؟ أقوم أهدم المخازن الضيقة وأبنى بدلها أخرى واسعة . وأُدخل محاصيلى وغلاتى وأغلق الأبواب وأقبض على المفتاح ، ثم أجلس مناجياً نفسى قائلاً : أصبحت ملكاً لا ينازعنى فيما أملك منازع . نعم ، جلس يناجى نفسه هكذا . ولم يقل يانفسى باركى الرب وأشكرى العلى ، مجدى الأمين المحُسن ذلك لأنه أغمض عينيه عن الحقيقة وابتدأ يقول : يانفسى كلى واشربى وتلذذى وتنعمى ولا تمنعى عن عينيك شيئاً تشتهينه ، لأن عندك خيرات كثيرة لسنين عديدة . إلى هذه اللحظة والله يطيل أناته عليه ، ولكن من أعلمك يامسكين أن لك سنينَ عديدة ؟ فى هذه الليلة تطلب نفسك منك . فالذى أعددته لمن يكون ؟ أقسمتَ فى غضبى أنك لا تذوق لذة طعم الخيرات الجديدة .

هذه آمال العالم ، أيها الأعزاء ، وغرورها . وكلنا يعلم أن كل شيء زائل وباطل وحقير وفانٍ . فالحياة ظلّ عابر وبخارٌ سريع . نعم ، كثيرون قدروا هذه الحياة فاحتقروها وأصبحوا لا يهمهم غنى ولا فقر ، ولا صحة ولا مرض ، ولا قوة ولا ضعف ، ولا كرامة ولا هوان ، ولا جاه ولا مذلة . هذه كلها أصبحت تتساوى لأن حبل الحياة سريع الانفصام والزوال ، وأدركوا وتعلموا أنهم إذا ذهبوا للمقابر يسألونها : أيتها المقابر ، هل كل الذين تضمينهم بداخلك أغنياء أم فقراء ؟ هل كانوا محترمين أم محتقرين ؟ هل كانوا رؤساء أم صعاليك ؟ فتجيبهم : الكل تساووا . هل كانوا متلذذين أم كانوا يتجرعون كؤوس العلقم ؟ فتجيبهم : الجميع تساووا .

نعم ، إن هذه الحقيقة أدركها كثيرون ، لا من أهل الإيمان فقط ، ولكن حتى من الوثنيين الملحدين الذين كانوا يعيشون بلا إله ولا تشريع .. نظروا إلى هذه الحقيقة فاحتقروا هذه الحياة الزمنية .

يشهد كتابٌ قديم عن أمة اليونان أنه كان يوجد فى عهد فيليب الأكبر ، أبو الإسكندر المقدونى ، رجل فيلسوف وثنى اسمه ديوجينوس ، لا يعرف الله . لم يكن هذا يملك قصراً من القصور ولا كوخاً ليعيش فيه ، ولكن كان كل ما يملكه من حطام هذا العالم بأسره هو برميلٌ فارغ وثوبٌ حقير .

وذات يوم خرج إليه الملك فيليب الأكبر ووقف أمام البرميل وحجب الشمس عنه وخاطبه قائلاً : ياديوجينوس ، اطلب ما ترغبه وما تتمناه وما يسعدك ، وأنا مستعد أن أعطيك ما تطلب . فضحك ديوجينوس وأجاب : كل ما أطلبه منك أنك تتحول عنى لأنظر نور الشمس ، فأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض .

فهل هذا شعورنا ياأحباء الرب ؟ ألا يوجد بيننا من لا فكر لهم إلا فى العالم ونياشينه وعظمته وجاهه ، على الرغم من أن الحياة زائلة ظلّ عابر ؟

فياليت الرب ينبه عقولنا حتى يسأل كلّ نفسه قائلاً : يانفسى ، كيف عشتِ فى الماضى ؟ وكيف تعيشين الآن ؟ ولأى غرض ستعيشين فى المستقبل ؟

السبب الثانى :

إن السبب الثانى أيها الأحباء ، الذى يحتم علينا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة وهو أن هذه الحياة ليست وقتية فقط بل حياة غربة . ولا بد للغريب أن يذهب إلى بلاده ،

لأن لكل غريب وطناً يفكر فيه دائماً ولا ينساه . فكيف ننسى وطننا السماوى ونحن فى ديار الغربة ؟

أيها الأخ ، هل سألت نفسك : يانفسى هل عشتِ لهذا الوطن ، أم أنتِ تعيشين وتحيين وأمامكِ أمل آخر غير موجود فى هذا الوطن الوقتى ؟

أيها الأعزاء ، سبقنا أنبياء وأبرار كثيرون إلى هذه الحقيقة وأدركوها . نأتى لواحد اسمه داود النبى ، كان ملكاً عظيماً على أرقى مملكة ، عظيمة المنزلة ، ذات جيوش جرارة وحكومة سامية وأمة مختارة . له مجد وكرامة فى العلم لا يحد . ولما تنظر إليه من الوجهة الروحية تجد أن الله شهد له قائلاً : فتشت قلب داود ابن يسى فوجدته حسب قلبى . فهذا قد ملك الدنيا والآخرة جسداً وروحاً .

نعم كان فى استطاعته أن يخدع ويغش ، ولكن هذا الإنسان الذى صال وجال اسمعوا ماذا يقول عن العالم الويل لى فإنى غريب لأن غربتى قد طالت . « غريبٌ أنا فى هذه الأرض ، فلا تخفِ عنى وصاياك » (مز ١١٩:١٩) .

فهل هذا شعارنا كلنا ؟ وهل هذا احساسنا كلنا ؟ أم أن القليل من ملذات العالم تبعدنا عن الحقيقة ؟

هل سألنا أنفسنا كيف عشنا ؟ وكيف نعيش ؟ وكيف سنعيش ياأعزائى ؟

لِما لا نأتى إلى محكمة النعمة ونسأل نعمة يسوع المسيح فى شخص بولس الرسول قائلاً : ما هو شعورك يابولس ؟ وما هى احساساتك نحو العالم المنظور ؟ فيجيبنا « لى اشتهاء أن أنطلق (من ههنا) وأكون مع المسيح . ذلك أفضل جداً » أنا محبوس فى قفص وأريد أن أفلت كعصفور انطلق من قفصه . ما هى حياتى ؟ إنى كغريب وأنا على الأرض ، والغريب يتمنى ساعة عودته إلى وطنه . لذلك يقول فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ، الأصحاح الخامس : « فإذاً نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب . لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان . فنثق ونُسر بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عن الرب . لذلك نحترص أيضاً مستوطنين كنا أو متغربين أن نكون مرضيين عنده . لأنه لابد أننا جميعاً نُظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢كو ٥:٦ــ١٠) .

هذه غاية الصالحين وأمنية الأبرار . فهل هذه أمنيتنا فى هذه الحياة ؟ هل عشنا فى

هذا الإحساس وشعرنا بهذا الشعور ؟ أنت غريب ، ألا تفرح للعودة إلى وطنك !؟

فياليتنا نسأل أنفسنا : يانفسي كيف عشتِ ؟ وكيف تعيشين ؟. وهل سعادتنا منحصرة فى انطلاقنا من سجننا أو العكس ؟ هل لسان حال كل واحد منا يقول : لا يخدعني من هذه الحياة شيء . لاغناها ولا صحتها ولا كرامتها ولا مراكزها — لأنها حياة غربة « باطل الأباطيل الكل باطل فيها وقبض الريح » . أنا آمالى محصورة فى الوطن السعيد الدائم الباقى . هل عشنا وفينا هذا الأمل ؟!

السبب الثالث :

والسبب الثالث الذى يحتم علينا أن نوجه هذه الأسئلة لأنفسنا هو أن هذه الحياة هى عربون الحياة الثانية .. ما نزرعه هنا نحصده هناك . بقدر مجهوداتنا وتعبنا واحتراسنا واحتياطنا هنا تكون مكافأتنا هناك . « لأن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً » (غل ٦:٧) .

الله لا يُشمخ عليه . ولكن نحن من جهلنا وغباثنا ننسى أبديتنا ونقول (أن ساعة الحظ لا تعوض) . أنت يامن مسيحك مات وقام تذكر أن الكتاب المقدس يشهد قائلاً : « إنه قام من بين الأموات وصار باكورة الراقدين » (١كو ١٥:٢٠) ولذلك يتقدم بولس الرسول برجاء الإيمان الحقيقى ويقول : « إذا كان لنا رجاء فى هذه الحياة فقط فى المسيح فنحن أشقى جميع الناس » (١كو ١٥:١٩) . هل عند الله ظلم ؟ أقول لكمْ كلا . هل سألنا أنفسنا : يانفسى : هل زرعتِ فى حقل حياتك الماضية خيراً لتحصدى خيراً أم زرعتِ آثاماً وشروراً ومعاصى وأرجاساً ؟ وهناك ، ماذا تنتظرين أن تحصدى ؟ ما هى الأجرة التى تأخذينها ؟ أجرة الخطية موت .

إنسان مسيحى بالاسم كان لا يعمل حساباً لآخرته ، ولسان حاله يقول (وقت الله يعين الله) ، كان عنده خادم مسيحى مؤمن . رتب الرب فرصة لكى يمجد ذاته . فاستدعى السيد خادمه المؤمن وقال له : اذهب أحرث الفدان الفلانى وازرعه قمحاً . فذهب إلى الأرض وحرثها وزرعها شعيراً بدلاً من القمح . فجاء المحصول شعيراً . فاستدعى السيد خادمه وقال له : فلان ، هل تتذكر ما طلبت منك أن تزرعه فى الفدان الفلانى ؟ فأجاب الخادم : قلت لي اذهب وازرعه قمحاً . فقال له : لماذا إذن زرعته شعيراً ؟ فأجاب الخادم : لأننى سمعتك مرات كثيرة تقول لأصدقائك أن الله قادر على كل شيء ، فظننت أننى إن زرعت شعيراً حصدت قمحاً . ففهم السيد ما رمى إليه

خادمه بكلامه هذا ، فتنبه ضميره واستيقظ قلبه وقال السيد أنا مخطيء وقد تبت على يديك .

فانظروا ، أيها الأعزاء ، إن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً . فهل سألنا أنفسنا : يانفسى ماذا زرعتِ فى حقلك الماضى ؟ إن ما نبنيه فى هذا العالم نسكن فيه هناك . وكل واحد عليه أن يعد بيته الأبدى فى هذه الدنيا من الآن ، حتى إذا ذهب يجد له مكاناً هناك .

ولقد قال الوحى الإلهى للملك حزقيال : « أوصِ بيتك لأنك تموت ولا تعيش » (إش ٣٨:١) . فهل أعددت لك مكاناً فى أورشليم السمائية أم فى جهنم النار ؟ فى السماء أم فى قاع الجحيم ؟ فى صهيون العليا أم فى البحيرة المتقدة بالنار والكبريت ؟

فياليت الرب يوقظ قلوبنا حتى يستعد كل واحد منا ويرتب وينظم ويهيىء بيته الأبدى الذى سيقضى فيه حياته الأبدية .

السبب الرابع :

أما السبب الرابع أيها الأعزاء ، الذى يحتم علينا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة هو : هل أمامنا دينونة ومناقشة الحساب على كل شاردة وواردة ؟ وهل وراءنا من يرصد خطواتنا وسكناتنا ؟ فكل فكرة ، كل صورة ، كل كلمة ، وكل خطوة ، وكل عمل نعمله مكتوبٌ لنا ــ إما فى الحسنات أو السيئات . وستأتى ساعة ، متى أتى الديان العادل فيها ، يتقدم إلى كل واحد منا قائلاً : اعطِ حساب وكالتك . يامن أعمتك غرور الحياة ، يامن يخدرك الشيطان ، يامن لجمك عدو الخير وأدار إرادتك حسب مسرته ، يامن خضعت لغرور الباطل ، تقدم واعطِ حساب وكالتك .

أيها الأعزاء ، هذا أمرٌ مقضى فيه ، فالوحى يُثبت إثباتاً لا يحتاج إلى برهان . من منا ينكر أن أمامنا دينونة فى السماء وأننا سنُقدم إلى محكمة وسنقف أمام قاضى عادل لا يمكن أن تُخفى عليه خافية ؟ هل الله يُخدعُ ؟ إلهنا لا يحتاج إلى براهين ، لأن أعضاء جسدى ستشهد علىَّ فى تلك الساعة . إن كذب لسانى ، تقول باقى الأعضاء : كذبت . وهكذا عيناى وأذناى ويداى ستشهد كلها علىَّ فى تلك الساعة .

اسمع ما يقوله الوحى على لسان سليمان الحكيم فى سفر الجامعة ، الأصحاح الحادى عشر : « افرح أيها الشاب فى حداثتك وليسرك قلبك فى أيام شبابك . واسلك فى

طرق قلبك وبمرأى عينيك . واعلم أنه على هذه الأمور كلها يأتى بك الله إلى الدينونة » (جا ١١:٩، ١١) . فافعل ما تشاء وتلذذ ، وسلم نفسك لِماَ تشاء من الأبالسة . ولكن اعلم أن بعد هذه الأمور كلها يأتى بك الله إلى الدينونة . نعم ، هذه شهادة الوحى الإلهى وإرشادات نعمة الله حيث تعلمنا فى سفر الجامعة « فلنسمع ختام الأمر كله . اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو الإنسان كله . لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة على كل خفى إن كان خيراً أو شراً » .

لقد لعبت الإباحية ياأحبائى بعقول المسيحيين شوطاً بعيداً ، والمسيح لا يعلمنا الخطية ولا الدنس . نعمة الله تعلمنا أن ننكر الفجور ونعيش بالتقوى والورع والتعقل فى هذا الزمان الحاضر . ويقول بولس الرسول : « لأننا جميعاً سُنظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد حسب ما عمل فى الجسد ، خيراً أو شراً » . ورب النعمة يقول أيضاً على لسان يوحنا الرائى : « وقال لى لا تختم على أقوال نبوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب . من يظلم فليُظلم بعد . ومن هو نجس فليتنجس بعد . ومن هو بار فليتبرر بعد . ومن هو مقدس فليتقدس بعد . وها أنا آتى سريعاً وأجرتى معى لأجازى كل واحد كما يكون عمله » (رؤ ٢٢:١٠، ١١) .

هذه تعاليم يسوع المسيح . فهل تنبهنا لهذه الإرشادات ؟ نعم ، هذه الأسباب الأربعة القوية هى التى تحتم على كل واحد منا أن يسأل نفسه قائلاً : يانفسى ، كيف عشت فيما مضى ؟ وكيف تعيشين الآن ؟ ولأى غرض ستعيشين فيما بعد ؟ حياتِك بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل ، وأنتِ غريبة ، ولابد للغريب من الذهاب إلى الوطن . وما تزرعينه هنا يكون لكِ هناك ، إن شراً أو خيراً ، حيث ستقفين فى ذلك اليوم أمام المسيح الديان العادل ، وسيناقش الجميع الحساب .

فياليت الرب يعيد لنا يقظة الإيمان الحقيقية . كفانا نوماً !

وليت الرب ينبه ضمير كل غافل حتى يسأل كل واحد نفسه يانفسى كيف عشتِ ؟ ولأى غرض تعيشين ؟

له المجد دائماً أبدياً آمين .

العظة السابعة

المـــوت

« وضع للناس أن يموتوا مرة » (عب ٩:٢٧)
« أى إنسان يحيا ولا يرى الموت ؟ » (مز ٨٩:٤٨)

اختلف الناس فى أمور كثيرة ، وتضاربت أفكارهم فى أشياء عديدة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على شيء واحد ، ألا وهو الموت . فالموت حق على كل إنسان ، وكأس يشربها الجميع . يقول بولس الرسول : آخر عدو يبطل هو الموت . والإنسان حسب الطبيعة قد جبل على حب الحياة ولذا يهرب من ذكر الموت ويحب أن ينساه . ولكن العناية الإلهية طالما تُذكره بغربته ورحيله من هذا العالم بطرق كثيرة متنوعة . يقول القديس أوغسطينوس : « يمكن للناس المقاومة ضد النيران الملتهبة وضد أمواج البحر المزبدة وضد الأسلحة المرهفة وضد الملوك المقتدرين ، ولكنه حينما يأتى الموت من يستطيع أن يقاومه ؟ » ولكن شكراً لله لأن يسوع كسر شوكته وانتصر عليه وقام ناقضاً أوجاع الموت ، ويستطيع المؤمن أن يواجه الموت قائلاً : أين شوكتك ياموت ؟!!

ولنا هنا كلمتان : أولاً ـ حقيقة الموت . ثانياً ـ موقفنا إزاء الموت .

أولاً ـ حقيقة الموت :

الموت هو انفصال الروح عن الجسد لكى ترجع الروح إلى الله خالقها ويرجع الجسد إلى التراب الذى أُخذ منه » (جا ١٢:٧) والموت طريق الأرض كلها . هو طريق يقطعه جميع الناس وقنطرة يعبرها كل البشر ، فقراء كانوا أو أغنياء ، مرضى أو أصحاء ، صغاراً كانوا أو كباراً ، كما يقول المرنم : « أى إنسان يحيا ولا يرى الموت » (مز ٨٩:٤٨) ومهما طال عمر الإنسان وكثرت سنو حياته على الأرض لابد أن يشرب كأس المنون ، وأن تميل شمس حياته إلى المغيب « لأنه وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة » (عب ٩:٢٧) .

إن جميع البشر يعلمون جيداً أنهم لابد أن يموتوا ، ولكن إبليس ما برح يطغى على الكثيرين موهماً إياهم أن الموت بعيد عنهم بهذا المقدار حتى يلاشى ذكره من أفكارهم بالكلية . وها نحن نرى الشيوخ الذين طعنوا فى السن والمرضى الذين أنهكت الأوجاع قواهم يخدعون أنفسهم بطول العمر وامتداد الزمن . اسمعوا ماذا يقول الله عنهم « باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد ، مساكنهم إلى دور فدور » (مز ٤٩ : ١١) . هم بأقوالهم يعترفون بالموت ، ولكن باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد !! ورغماً عن ذلك ، فالعناية طالما تنادينا بأصوات قوية لنحيى فينا ذكر الموت الذى نريد أن نميته بأى وسيلة كانت حتى لا يزعجنا . ومنا من يقرون بالموت ولكنهم يضعونه فى المستقبل البعيد ، ويعللون لذلك بأمانى طول الحياة . حتى الذين تقدموا فى السن ، وقد يصل أحدهم إلى سن الستين ، والنفس باقية على أمانيها أنه يعيش على الأقل عشرين سنة أخرى . وغيره يناهز الثمانين والآمال تغريه بأنه لا يرى سبباً يمنعه من الاعتقاد بأنه يصل إلى المائة كالبعض الذين عاشوا قبله هكذا . ومع هذا فالأصوات التى تنادينا كثيرة .. الموت الفجائى ، موت الشباب الأقوياء ، موت الأصحاء وهم فى أكمل صحة ، يفاجئهم الموت ويختطفهم اختطافاً . أليست هنا العظة البالغة والعبرة القوية لنا نحن الأحياء التى تمر بنا يومياً ؟

كان أحد الأساقفة الأتقياء راجعاً إلى مقر المطرانية يوماً عندما قابله صديق وسأله : « أين كنت » ؟ أجابه : لقد قابلت عظة « فإنى قابلت جنازة » . وقصد بهذا أن رؤيته لجنازة كانت له عظة بالغة . فهل نتعظ نحن من هذه العظات الملموسة المحسوسة ؟؟

فواجبنا إذن ، فى كل لحظة ، الاستعداد لهذا اليوم حتى نكون من المقبولين فى العرس السمائى .

ثانياً ــ موقفنا إزاء الموت :

وهنا نلاحظ :

١ ــ وجوب استعدادنا :

إن الاستعداد للموت أمر ضرورى الآن ، لأن الإنسان ليس له إلا حياة واحدة ، لو فقدها فإنه يفقدها إلى الأبد . وأيضاً : الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة وبعد الموت سيكون أمام أمرين : إما سعادة أبدية أو شقاء دائم : ولذلك يقول الوحى : « استعد للقاء إلهك » (عا ٤ : ١٢) . ويقول السيد المسيح : « كونوا أنتم أيضاً مستعدين »

(مت ٢٤:٤٤) . إن الله جعل ساعة الموت مجهولة لكى نكون على أتم استعداد كل حين : وكما قال يوحنا ذهبى الفم : « إن الله قد أخفى عنا ساعة الموت لثلاث غايات : أولاً : لتعزيتنا حتى لا نعيش مضطربين خائفين . ثانياً ، لصيانتنا حتى لا يتمادى الشرير فى شره ويؤجل توبته لآخر لحظة .. وثالثاً : لكمالنا ، لأن الإنسان الذى يتوقع الموت فى كل وقت يستعد له باستمرار ، فيحيا أميناً طاهراً متقدماً فى كل فضيلة وتقوى » . قال القديس أوغسطينوس : « إن الله بإخفائه عنا يوم انتهاء حياتنا قد خصنا برحمة جليلة ، إذ أنه بذلك يلزمنا المواظبة والسهر والتيقظ على نفوسنا بلا ملل » .

أيها الخاطىء ، هل أنت مستعد للموت ؟ إن لم تكن مستعداً ، فماذا تعمل فى آخر حياتك ؟ من يعلم ؟ ربما تكون هذه الكلمة آخر إنذار من الله لك . إن الاستعداد يوجب عليك التوبة والرجوع إلى الله من كل قلبك والإيمان بالمسيح كمخلصك الشخصى الوحيد « لأن من يؤمن بالابن فله حياة أبدية » . فرصة الاستعداد « الآن » .. « هوذا الآن وقت مقبول . هوذا الآن يوم خلاص » . « ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره . وليتب إلى الرب فيرحمه ، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران » (إش ٥٥:٧) . أيها الغير التائب ، هذه فرصتك الآن ، فهل تدعها تمر من دون أن تحظى بخلاص نفسك ؟ هل تقول : إنى عزمت كل العزم على أن أحب الله واستعد للسماء ، ولكن ليس الآن ؟ وحين أعمل هذا أو ذاك أبتدى أن أفكر تفكيراً جدياً فى نفسى ؟! هكذا كان منطق الكثيرين ، ولكنهم ذهبوا إلى الهلاك . فقد انتهى الوقت قبل أن ينتظروا كثيراً ، وفرصهم المهملة ذهبت ، فساروا إلى أبدية مظلمة . إن اللحظة التى أنت فيها هى اللحظة الوحيدة التى تستطيع أن تضمنها ، فقد لا تأتى الدقيقة التى بعدها حتى تكون نفسك فى الهلاك . أيها الأخ العزيز ، استخف بكل شىء ، ولكن لا تستخف بنفسك الخالدة . ولترجىء أو تهمل كل عمل آخر ، ولكن إياك أن تهمل الأمور التى تتعلق بها حياتك الأبدية وسلامك الأبدى .

كان لأحد الأغنياء ضمن حاشيته رجل فى منتهى البساطة والسذاجة ، حتى أطلق عليه لقب : الخادم الغبى وقد أهداه ذات يوم عصا وطلب منه أن يحتفظ بها ولا يسلمها إلا لرجل يفوقه فى الغباوة . وحدث بعد مدة من الزمن أن مرض هذا الغنى مرض الموت ، ورأى الخادم الناس يزورون سيده ويسألون عنه ، فاستأذن ودخل عنده وتمنى له الشفاء ، فأجابه سيده قائلاً ، إننى على وشك الانتهاء .. إننى سأسافر حالاً .. فقال الخادم ، كيف هذا ياسيدى ، هل تسافر دون أن نعد لك أمتعتك وملابسك ..؟

فأجابه قائلا : يالك من غبى !! ألم أقل إنك غبى حقاً !! وهل تظن أننى فى هذه السفرة أستطيع أن آخذ معى شيئاً ؟ قال الخادم : وهل سفرتك هذه تطول ياسيدى ، أم تعود قريباً ؟ أجابه : أيها الجاهل ، إنها سفرة لا نهاية لها ، إلى أبد الآبدين .. ثم نطق الخادم بعبارة كانت كسهم اخترق قلب سيده ، إذ قال له : إن كانت رحلة لا نهاية لها ، هل أعددت نفسك لها ؟ وهل جهزت نفسك للأبدية ؟؟ فأجابه : لقد تجهزت لأمور كثيرة ، ولكننى لم استعد للأبدية !! فحالاً تقدم الخادم نحوه وبيده العصا ، وناوله إياها وقال له : إذن ، خذ هذه العصا ، لأنى وجدت اليوم من هو أكثر غباوة منى . نعم ، ولقد كان ذلك الغنى أكثر غباوة من الخادم !!

أى حماقة يمكن أن يوصف بها البشر الذين يظنون فى أنفسهم الحكمة وبعد النظر ! حين يفكرون فى أمر عندهم ، يدبرون التدابير منصرفين بكلياتهم وجزيئاتهم ، لتأمين مستقبل قد لا يعيشون فيه قط : أما ذلك المستقبل الذى لا نهاية له ، المستقبل الأبدى ، فإنه فى نظرهم لا يستحق أى اهتمام أو تقدير !! وحتى تعرض الأبدية ذاتها ــ كما يحدث فى بعض أعمال العناية ــ على مسمع الإنسان وبصره ، نرى الإنسان يغض النظر عنها ويحاول أن ينساها ، ظناً منه أنه بهذه الطريقة يتخلص منها إلى الأبد . إن الطريقة الصحيحة ليست أن تهرب من التفكير فى الأبدية ، بل أن تواجهها . وخير لك ألف مرة أن تواجهها فى هذه الحياة ، وأنت فى إمكانك تغيير مصيرك فيها ، من أن تواجهها بعد فوات الأوان . إن أحسن استعداد للمستقبل هو الحاضر .

أيها المؤمن ، هل أنت مستعد للقاء إلهك ؟ إن الاستعداد الحقيقى للمؤمن معناه أن يكون فى حالة مؤهلة ، أن يمثل يسوع أحسن تمثيل بين الناس ، فيحيا حياة الإيمان والقداسة . كان شعار القديس بولس « الاستعداد الدائم » . وكما قال عن نفسه « إنى مستعد أن أموت » ، فقد كان مستعداً لا ليموت فقط بل ليحيا حياة فضلى أيضاً . وهكذا ، لا ينبغى أن ينتهى الأمر بمجرد الاستعداد للموت . كما كان كثيرون يفعلون ، متباعدين عن العمل والخدمة ــ بل يجب الاستعداد للحياة لأنها فرصتنا الثمينة ، نستعد للحياة ، الحياة الطاهرة العاملة المضحية ، كالعبد الأمين الحكيم الذى قيل عنه « طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا » .

٢ ــ يقين انتصارنا :

كان القبر مكاناً مظلماً ، عنده تسكب دموعنا ، وإليه تنتهى مسرتنا . السواد شعاره ، والظلمة عنوانه . لكن لما قام المسيح من الموت أضاء كل القبور . ونحن اليوم

لا نقترب من القبور فزعين مرتعبين كما كنا قبلا ، بل نقترب منها كما نقترب إلى غرفة النوم ، لأن نور المسيح يملأها .

قد ينظر الناس إلى الموت فيرون فيه عدواً مخيفاً ، وإلى القبر فيشاهدون فيه مقراً مظلماً ، وإلى التابوت فيعدونه سريراً خشناً .. ولكن المؤمنين يرون من وراء خوف الموت طمأنينة السماء ، ومن وراء ظلمة القبر يشاهدون نوراً مشرقاً بهيجاً ، ومن وراء خشونة التابوت السعادة والفرح . قال أحد الأتقياء : يرى البعض . الموت رسول الهلاك ، وأنا أقول إنه رسول يسوع المسيح للحياة الأبدية . ويحكم البعض عليه بأنه نهاية العيش ، وأنا أحكم عليه بأنه بداية الحياة . ويحسبه الناس خسارة ، وأنا أحسبه ربحاً . ويعده الأكثرون فراقاً ، وأنا أعده لقاء . ويقول البعض إنه البعد عن الأحياء ، وأنا أعتقد أنه القرب لأحسن الأحباء ، لأنه يأتى بنا إلى حضرة الرب يسوع .

يقول الله : « لا تحزنوا كالباقين الذين لارجاء لهم » أى يجب على المسيحيين أن يتصرفوا بصورة يرى فيها الناس أنهم يرونَ مجد الله حتى فى الموت ، فيجب أن يظهروا بمظهر الهدوء والتعقل والاحتمال ، فيضىء نور الإيمان متلألئاً فى دموع إنسانيتهم ، ولتلمع وجوههم بشكر الرب وتسبيحه وهم يودعون أجساد الأحباء فى مقر راحتها إلى وقت القيامة .

إن المؤمن يعتبر الموت ربحاً وأمراً مشتهى وانطلاقاً ، كما اعتبره بولس الرسول ، لأنه يدخله حياة الحرية التامة ويتخلص من العالم وشروره ومتاعبه ويبتدى بالراحة والشركة الدائمة مع المسيح . بالموت يتخلص المؤمن من النوح والأنين والأحزان والأوجاع ، الأمور التى تتحول إلى فرح مستديم .

أما الإنسان بعد الموت ، فالجسد من التراب وإلى التراب يعود ، ولكن الروح تصعد لخالقها وتكون فى حالة أفضل وأكمل ... وقد نتساءل عن الفترة بين الموت والقيامة — إننا نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب . نفوس الأبرار تذهب إلى الفردوس لتستريح وتنال عربون السعادة والمجد ، كما قال المسيح « اليوم تكون معى فى الفردوس » ، ونفوس الأشرار تذهب إلى الجحيم لتنال عربون الشقاء الأبدى . أما الراحة التامة ، أو العذاب التام ، فلا يُحكم فيهما إلا بعد الدينونة حينما يأتى المسيح وأجرته معه ليجازى كل واحد كما يكون عمله ، وتلبس النفوس أجسادها ، لأنه عدل هو أن تكافأ النفس فى الجسد الذى أحسنت إليه ، كما تجازى فى الجسد الذى أساءت فيه . وقبل القيامة تكون حالة القديسين الراحلين أكمل وأنبل مما كانت على الأرض ،

فهم مهما تكن تفاصيل حالتهم ، أرواح أبرار مكملين . نعم ، إن أجسادهم لم تتمجد بعد ، ولكن أرواحهم تكون جزءاً من المحفل المبارك الذى يرأسه المسيح ، فتستريح نفس المؤمن إلى أن يأتى الوقت المعين فيبذغ الفجر الأبدى ، واليد التى حفظتها فى نومها تلمسها لتوقظها . فإذا هبت من رقادها تلبسها صورة جسد مجده ، فتنظر إلى وجهه المبارك اللامع بالمحبة والنور والجمال وتتمتع بالمجد الأبدى .

وأذكر هنا بعض أقوال المحتضرين التى نطقوا بها ساعة موتهم :

سمعان الشيخ : « الآن تطلق عبدك ياسيد كقولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » .

استفانوس : « أيها الرب يسوع اقبل روحى .. يارب لا تقم لهم هذه الخطية » .

كانت آخر كلمات أبينا القديس العظيم الأنبا أنطونيوس لتلميذيه « ادفنانى تحت الأرض ولا تقولا لأحد عن موضع جسدى ، حتى إذا جاء يوم القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح ، بكر القيامة ، خالياً من الفساد » .

وقال القديس باخوميوس قبل موته لتلاميذه : « إننى أشاهد ياأولادى الأعزاء أن الله عن قريب يريد أن يدعونى إليه . أما أنا فمن دون خوف أقبل نحو الموت ، لأنى واثق بصلاح الله غير المتناهى » .

أحد الوعاظ : « مبارك هو الله ، لأنه وإن كنت أغيرَّ موضعى فإنى لا أغير صديقى الذى سرت معه وأنا حى ، والآن أذهب لأستريح عنده » .

حقاً « طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكى يستريحوا من أتعابهم . وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ :١٣) .

ساعدنا يارب لنسير فى موكب نصرتك فى الحياة والممات واستجب لنا .

ولك كل المجد من الآن وإلى الأبد آمين .

العظة الثامنة

الاستعداد للموت

« كونوا أنتم أيضاً مستعدين »
(مت ٢٤:٤٤)

كتابنا المقدس يحتم علينا أن نفكر دائماً فى هول تلك الساعة ، حيث تنهلع الأفئدة من الحساب الدقيق العسير ، حيث هناك أمام عرش الديان ، الذى لا تخفى عليه خافية ، تتلاشى عظمة العظماء . وينتهى جبروت الجبابرة ، يوم نقف جميعاً أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع ، خيراً كان أم شراً » (٢كو ٥:١٠) .. يوم يصدر الحكم الإلهى فى كل إنسان ، إما بالعذاب الأبدى أو بالسعادة الأبدية .

بالموت يقطع الإنسان آخر مرحلة من مراحل جهاده ، وبعد الموت يتقرر مصيره — إما نعيم دائم أم شقاء لا نهاية له .. إما سرور سرمدى أم حزن لا فرح بعده .. إما مجد لا يوصف أم هوان لا يطاق . وإذا تأملنا فى الأمور التى تحضنا على الاستعداد للموت نراها تتلخص فيما يأتى :

أولاً — نستعد لأن ساعة الموت غير معروفة :

إن آية موضوعنا هذه قد نطق بها السيد المسيح عندما تكلم عن خراب أورشليم ونهاية العالم ، حين يأتى ابن الإنسان فى مجيئه الثانى للدينونة ، وأوصى تلاميذه هنا بالاستعداد دائماً ، وأوضح أقواله بمثلين ، فقال : لو عرف رب البيت أن جماعة من اللصوص اتفقوا على سرقة بيته لسهر طول الليل خوفاً على البيت لئلا ينقب . وكذلك ضرب لهم مثل العبد الذى يعمل عمله بنشاط منتظراً قدوم سيده ، وبما أنه لا يعلم فى أية ساعة من الليل يأتى فلذلك يسهر طول الليل ، حتى إذا جاء سيده يجده مستيقظاً نشيطاً مستعداً لمجيئه ، قائماً بواجباته خير قيام وهذه الأقوال الإلهية تُثبت مجىء الموت بغتة . حقاً إن الموت يشبه اللص .. فهو ينقض على الإنسان بسرعة ويفاجئه فى وقت غير معلوم . كلنا نعرف أننا حتماً سنموت ، ولكننا لا نعرف متى نموت . حياتنا تنتهى بسرعة مثل يقطينة يونان التى ارتفعت فوق رأسه فاستظل بها من حرارة

الشمس ، وقبل أن يكمل فرحه بها ضربتها دودة فى الغد عند طلوع الفجر فيبست فى الحال . كانت حياتها معدودة الساعات ، إذ فى ليلة نبتت ، وفى ليلة يبست وتلاشت (يون ٤) .

وما أبلغ ذاك التشبيه الذى نطق به يعقوب الرسول عن حياة الإنسان إذ قال ما هى حياتكم إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل » (يع ٤:١٤) . وحقاً حياتنا تشبه البخار فى الزوال وعدم الثبات . قد يفيق الإنسان من نومه ويرتدى ملابسه ثم يخرج إلى عمله وهو لا يعرف هل هذه الملابس ستنزعها عنه يده أم ستنزعها يد الغاسل . ساعة الموت قد تعاجل الشاب وهو فى ريعان الشباب فتقصف غصنه الرطب وتذبل زهرته اليانعة وتقدمه إلى ربه حيث يجنى ثمرة أعماله فى الحياة الدنيا ، كما تأتى تلك الساعة إلى الشيخ الضعيف فتسلبه الحياة فى لحظة ، لا فرق بين الشاب والشيخ ، الرجل والمرأة ، البنت والولد ، الضعيف والقوى ، الفقير والغنى ، الصالح والطالح ، الجميع متساوون أمام الموت . لا يفلت من قبضته أحد . لاتهمه مظاهر العظماء ولا يلتفت إلى أصحاب السيطرة العالمية ، بل عنده العظيم والحقير سيان . الموت لا يخلو منه بر ولا بحر . يوجد فى الجبل كما يوجد فى الحقل وفى البيت ، هو فى المدن وفى القرى .

حقاً أن الموت للإنسان كشبكة مطروحة فى البحر للأسماك أو كشرك منصوب فى البر للطيور ، كما قال الحكيم : « لأن الإنسان أيضاً لا يعرف وقته . كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك كذلك تُقتنص بنو البشر ... بغتة » (جا ٩:١٢) . وبما أن ساعة الموت مجهولة بهذا المقدار فلنستعد على الدوام حتى نكون فى سلام وطمأنينة . فإذا كنا نجهل ساعة الموت فعلينا أن نرجع عن شرورنا وآثامنا ونجتهد أن نموت ميتة صالحة مرضية للرب لكى نحصل منه على المجد الأبدى .

ثانياً ــ نستعد لأن الله أمرنا أن نستعد :

إن الرب يأمرنا من وقت لآخر فى كتابة المقدس بالاستعداد للموت ويعتبر تنفيذ هذا الأمر شرطاً أساسياً لمرضاته ، وكذا للدخول فى أمجاد السماء ، فيقول : « استعد للقاء إلهك » (عا ٤:١٢) . إن أوامر الحكام الأرضيين يطيعها الجميع وتحترم . ومن يخالفها يُعتبر مجرماً أمام القانون ، فيقتص منه القضاء بلا شفقة ولا رحمة . فإذا كانت أوامر البشر نافذة ومطاعة بهذا المقدار ، فكم وكم يجب أن تحترم وتطاع أوامر ملك الملوك ورب الأرباب الذى يخضع لجبروته جند السماء وسكان الأرض ؟ وما الاستعداد للموت إلا أحد تلك الأوامر المقدسة الإلهية . ولهذا نرى السيد المسيح يأمرنا قائلاً :

« اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم » (مت ٢٤:٤٢) . وقد كرر هذه الآية أيضاً بقوله : « فاسهروا إذن لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الإنسان » (مت ٢٥:١٣؛ مر ١٣:٣٣؛ لو ٢١:٣٦) . ولئلا يتسرب إلى الأذهان أن هذا القول الإلهى موجه للرسل فقط ، فقد أردف ذلك بقوله : « وما أقوله لكم أقول للجميع . اسهروا » (مر ١٣:٣٧) .

ثالثاً ــ نستعد لكى ننجو من هول العذاب الأبدى :

الإنسان الغير مستعد للموت غير مستعد ليوم الدينونة الرهيب . ولهذا يقف فى ذلك اليوم مرتعداً واجماً خائفاً من شروره التى ارتكبها فى الحياة . فى ذلك اليوم الرهيب يرى الأشرار أنفسهم أمام الأمر الواقع (النهاية المريعة) يتطلعون وإذا بالرب يسوع ، الذى كثيراً ما ازدروا بتعاليمه المقدسة ووصاياه الإلهية ، آتٍ بنفسه على سحاب السماء بقوة ومجد كثير (مت ٢٤:٣٠) ، ليضع أعداءه تحت موطىء قدميه فحينئذ « يقولون للجبال اسقطى علينا وأخفينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف (رؤ ٦:١٦،١٧) ، « لأن يوم الرب عظيم ومخوف جداً فمن يطيقه » (يؤ ٢:١١) .

أحبائى ، إن المجىء الثانى للمسيح يختلف كثيراً عن مجيئه الأول ، لأنه فى مجيئه الأول أتى بمحبة وسلام ووداعة واتضاع ، وملائكته قدموا تحيتهم لجميع سكان الأرض حين الميلاد . ولكن فى مجيئه الثانى يأتى بعدله . فذاك الوديع المتواضع الذى كان فى مجيئه الأول « كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه » (إش ٥٣:٧) ، يتحول إلى أسد مزمجر ، ومجرد النظر إليه يرعب الخطاة ويقطع أملهم فى الرحمة والتعزية ، لأنه يأتى فى مجيئه الأخير للإنتقام منهم وتعذيبهم ومجازاتهم . يأتى ليدين الذين أستهانوا بدمه الطاهر فلم يُقدروا الفداء العجيب الذى قدمه لهم مجاناً ، ولم يفكروا فى فداحة آلامه لأجلهم فوق خشبة الصليب ، بل أهانوه بأعمالهم وأذاقوه الألم مرات كثيرة بأفعالهم الأثيمة .. أولئك الخطاة الذين تمردوا عليه ولم يستعدوا لمجيئه يَرونه آتياً لقصاصهم ، وعندئذ يطلبون الموت فيهرب منهم ولا يجدونه ، كما قال يوحنا الرسول (رؤ ٩:٦) ، لأن يوم المجىء الثانى للمسيح لا يسمى يوم رحمة أو شفقة بل يسمى يوم الدينونة العظيم ، ويقول فيه صفنيا النبى : « قريبٌ يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً .. ذلك اليوم يوم سخط يوم ضيق وشدة ، يوم خراب ودمار ، يوم ظلام وقتام ، يوم سحاب وضباب .. وأضايق الناس فيمشون كالعمى لأنهم أخطأوا إلى الرب فيُسفح دمهم كالتراب ولحمهم كالجلة . لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع إنقاذهمَ فى يوم غضب

الرب ، بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلها ، لأنه يصنع فناء باغتاً لكل سكان الأرض » (صف ١:١٤،١٥،١٧،١٨) .

أيها المسيحى ، أجبنى بأى وجه يقف الغير مستعد أمام الديان العادل ؟ وبماذا يجاوب عن ذاته أمام ذاك القاضى الذى لا تخفى عليه خافية ، فاحص القلوب والكلى ؟ » (إر ١٧:١٠) ، بأى وجه يقف الحلاف والنمام والكذاب والمرائى والبخيل والسارق والسكير والزانى والمتكبر أمام الديان العظيم ؟ كيف يقابل الله الشخص الذى يتهافت على سماع الأغانى الشيطانية ويسر بها ؟ ماذا يعمل فى ذلك اليوم الرهيب المرابى الذى استحل لنفسه امتصاص دماء الناس وخرّب بيوتهم ؟ بماذا يجاوب عن ذاته الشخص الذى قبلَ الرشوة على نفسه حتى أعمت بصيرته فعوّج المستقيم ؟ ماذا يعمل فى ساعة الحساب الرجل الظالم آكل حقوق الغير ، سالب متاع الأرامل والأيتام ؟ كيف يقابل الله الشخص الكسول فى الأمور الدينية المتهاون فى عبادته ، عز وجل .. وبالإجمال أقول : كيف ينجو الخاطىء من عدل الله الرهيب ؟ هل يظن أنه يهرب فى وقت الدينونة من أمام الديان القدير ؟ كلا ، إن الهرب ليس فى استطاعته لأن الله يراه ويقبض عليه أينما حل ووجد ، كما قال داود النبى : « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدتُ إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشتُ فى الهاوية فها أنت . إن أخذتُ جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر . فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . فقلت إنما الظلمة تغشانى . فالليل يضىء حولى . الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضىء . كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩:٧ــ١٢) .

أو هل يرجو الخاطىء هناك دفاعاً من أحد الناس الذين اشتركوا معه فى شروره التى اقترفها وهو على الأرض ؟ كلا ، لأن الأشرار لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم ، فكيف يدافعون عن غيرهم ؟ يقول الرب على فم حزقيال النبى : « فيحملون خزيهم وكل إهانتهم التى أهانونى إياها » (حز ٣٩:٢٦) « ليلبس خصمائى خجلاً وليتعطفوا بخزيهم كالرداء » (مز ١٠٩:٢٩) .

وبعد الدينونة مباشرة يساق الأشرار إلى جهنم التى لا قرار لها حيث النار لا تطفأ والدود لا ينام ، لأنهم لم يستعدوا لليوم الأخير . وإليكم قول السيد المسيح عن العبد الغير مستعد . « يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره وفى ساعة لا يعرفها . فيقطعه ويجعل نصيبه مع المرائين . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » (مت ٢٤:٥٠،٥١) . « والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » (مت ٢٥:٣٠) . فلنهرع إلى الاستعداد لنرضى الرب وننجو من

سعير جهنم المتقدة بالنار والكبريت ، إذ لا نجاة لأحد بدونه . ولنتوسل إلى الرب ليل نهار قائلين : ساعدنا يارب ، ساعدنا على مواصلة الاستعداد ليومك العظيم .

هذه : هى الوسائل الجوهرية الفعالة التى يرتكز عليها الاستعداد للموت ، ولا نستطيع أن نتممها إلا بالاحتماء فى قوة الرب الذى وعد بأن يعيننا ويقوى ضعفاتنا ، كما قال داود النبى : « عوننا باسم الرب الصانع السموات والأرض » (مز ٨:١٢٤) . فلنستعد للأبدية ونطلب العون من الفادى يسوع الذى وعدنا قائلاً : ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » (مت ٢٠:٢٨) . وقال أيضاً : « تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل » (٢كو ٩:١٢) .

أيها الأحباء ، إن المستعد عندما يأتيه الموت يقابله وهو هادىء الفكر مرتاح الضمير ، معتبراً إياه من الأصدقاء لثقته أن الموت سينقله من عالم الأحزان إلى دار الراحة والمجد . ياالغبطة الساهر على خلاص نفسه المستعد لمواجهة الموت ! إنه لسعيد حقاً ، وسعادته دائمة ، لا حد لها ، لأن الرب يعطيه الغبطة قائلاً : « طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه » (رؤ ١٥:١٦) .

فلنستعد للموت لننال السعادة الأبدية ، تلك التى لم يستطع بولس الرسول أن يعبر عنها ، لأنه لم يجد فى كل قواميس اللغة ألفاظاً مناسبة تساعده على التعبير ، فاكتفى بقوله : « مالم ترَ عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١كو ٩:٢) . فلنستعد للموت لنحصل على البشرى الإلهية القائلة : « قولوا للصديق خيرٌ . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم » (إش ١٠:٣) . لنستعد للموت فنحصل على ثياب المجد البيضاء ونكلل بإكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه (يع ١٢:١) . لنستعد حتى نجلس أخيراً على عروش المجد (رؤ ٤:٢٠) حيث الأنوار البهية ، والكواكب الزاهرة ، والشموس الساطعة حول شمس البر يسوع ، وهناك نملك إلى أبد الآبدين (رؤ ٢٢) . فلنستعد للموت لنرث سعادة السماء حيث يمسح الله بنفسه الدموع من أعيننا (إش ٨:٢٥) . فبذلك ننسى ضيقات هذه الحياة وأحزانها الكثيرة (إش ١١:٦٥) لنستعد للموت حتى تتمتع أعيننا أخيراً بالنظر إلى ملك الملوك فى بهائه (إش ١٧:٣٣) . وعندئذ نهتف هتاف الفرح قائلين : « إن يوماً واحداً فى ديارك خير من ألف » (مز ١٠:٨٤) .

وأخيراً ، أتوسل إلى الله أن يساعدنا فى جهادنا الروحى لنستعد تمام الاستعداد حتى لانحرم من ذلك الصوت الإلهى المفرح القائل لكل مستعد : « ادخل إلى فرح سيدك » (مت ٢٥) . **ولإلهنا المجد دائماً أبدياً . آمين .**

العظة التاسعة

الموت خاتمة الأتعاب وبدء الراحة الأبدية

« .. طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكى يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم »

(رؤ ١٤ :١٣)

قال الرسول بولس : « لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح .. لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » (فى ١ :٢١، ٢٣) . وقال : « نثق ونسر بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب » (٢كو ٥ :٨) . وقال المرتل : « عزيز فى عينى الرب موت أتقيائه » (مز ١١٦ :١٥) وقال سمعان الشيخ : « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ :٢٩، ٣٠) .

الموت هو انفصال النفس عن الجسد حتى يزول عنه مبدأ الحياة وينحل إلى عناصره الأصلية . فالتراب يعود إلى التراب الذى أُخذ منه . وترجع الروح إلى خالقها الذى أعطاها . فالموت ، إذن ، ليس هو ملاشاة الإنسان وفناؤه ، بل هو انفصال فقط . فإن الروح العاقلة خالدة لا تموت ، وهى جوهر لا يقبل الانقسام والتجزئة . ولا توجد قوة فى الكون تقدر أن تلاشيها . والجسد ، الذى هو مسكن لتلك الروح ، ينهدم وينقض بعد خروج النفس وانطلاقها إلى عالم الخلود .

ويعبر عن الموت فى العهد القديم بالذهاب فى طريق الأرض كلها (يش ٢٣ :١٤) ، وبالسلوك فى طريق لاعود منها (أى ١٦ :٢٢ ؛ ١مل ٢ :١، ٢) ، وبالانضمام إلى قومنا (تك ٤٩ :٣٣) ، وبالانحدار إلى أرض السكوت (مز ١١٥ :١٧) ، وبالعود إلى التراب (تك ٣ :٩ ؛ مز ١٠٤ :٢٩) ، وبالانحسام (أى ١٤ :٢) ، وبالبروج كالظل (أى ١٤ :٢) .

وفى العهد الجديد يعبر عن الموت بالنوم (يو ١١ :١١) ، وبنقض بيت خيمتنا الأرضى (٢كو ٥ :١) ، وبخلع مسكننا (٢بط ١ :١٤) ، وبطلب الله النفس (لو ١٢ :٢٠) ، وبتسليم الروح (أع ٥ :١٠) ، وبالانطلاق (فى ١ :٢٣) ، وبالانحلال

(٢تى ٤ :٦) ، وبرقاد فى المسيح (١كو ١٥ :١٨ ؛ ١تس ٤ :١٤) ، وبالاستيطان عند الرب (٢كو ٥ :٨) .

كان الموت فى الأصل عقاباً على الخطية ، ولكن مخلصنا كسر شوكته وأباد سلطته وحوّله إلى واسطة للانتقال إلى حياة جديدة سعيدة . فالموت ليس سوى رقاد هادىء ، ونوم تعقبه اليقظة فى دار الخلود . ولذلك قال السيد عن موت لعازر : إنه قد نام . وأنا ذاهب لأوقظه (يو ١١ :١١) . وقال الرسول بولس : « ثم لا أريد أن تجهلوا ، أيها الإخوة ، من جهة الراقدين لكى لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم . لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله معه » (١تس ٤ :١٣،١٤) .

فالذين ينتقلون وهم مؤمنون بالمسيح لا يدعون موتى ، بل أنهم رقدوا واستراحوا فى الرب على رجاء القيامة . فهم رقود لا أموات . وقد وصلوا الميناء الأمين حيث نالوا عربون السعادة إلى أن يحصلوا على كمال الأمجاد فى السماء فى القيامة المجيدة . بعد النوم الصحو ، وبعد الرقود اليقظة . فما الموت إلا راحة من عناء أتعاب وهموم هذه الدنيا . وكما أن النائم بعد نهار صُرف فى التعب والعمل يشعر بالراحة فى نومه إلى أن يستيقظ مجدد القوى فى النهار التالى ، هكذا الموت ، فإنه راحة ونوم هنىء للمؤمنين ، لا تتخلله أحلام مزعجة ، إلى أن يقوم فى الحياة الجديدة فى صباح القيامة المجيدة بحياة جديدة مجيدة .

إن المسيح ، له المجد ، هو الذى أنار لنا الحياة والخلود ، وبقيامته صار باكورة للراقدين . فمن مات فى المسيح لاقَ الموت بهدوء ورجاء ، واجتاز الظلمات بلا خوف ، قائلاً مع داود النبى : « إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز ٢٣ :٤) . قال الرسول بولس : « لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد . وهذا المائت يلبس عدم موت .. فحينئذ تتحول الكلمة المكتوبة « ابتلع الموت » إلى غلبة أين شوكتك ياموت ؟ أين غلبتك ياهاوية ؟ أما شوكة الموت فهى الخطية ، وقوة الخطية هى الناموس . ولكن شكراً لله الذى يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١كو ١٥ :٥٣ــ٥٧) .

فما الموت إذن إلا رقاد لذيذ تعقبه راحة أبدية لا نهاية لها ، وخاتمة أتعاب انتهت ، وبدء حياة جديدة بمجد أبدى ، وميلاد جديد سرمدى . وهو وإن كان مخيفاً ومفزعاً لأنه يفصل بين النفس والجسد المتحدين ، إلا أنه حامل فى يده مفتاحاً ذهبياً

للصديقين ، يفتح لهم أبواب السماء للدخول إلى الراحة الأبدية . وما أسعد الراحة بعد التعب ! وما أشهى المكافأة بعد العمل والكد ! وما أفضل نيل الإكليل بعد الجهاد والكفاح ! لذلك قال الرسول عندما شعر بقرب انحلاله : « فإنى أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر . قد جاهدت الجهاد الحسن . أكملت السعى . حفظت الإيمان . وأخيراً قد وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل . وليس لى فقط ، بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً » (٢تى ٤:٦ــ٨) .

ما دامت السفينة فى البحر فهى عرضة للخطر . والمسافر لا يزال جزعاً حتى يصل إلى الميناء . هكذا نحن مادمنا فى العالم فنحن عرضة لسهام التجارب . وما أكثر التجارب التى تهاجمنا والأنواء التى تلاطمنا ، لأننا نجاهد ضد الأهواء . فإن قهرنا الجسد نهض الطمع . وإن ذللنا الطمع ناصبنا الغضب . وإن انتصرنا على الغضب قاومنا الحسد . وهكذا لا تزال سلسلة أعداء تلى بعضها بعضاً تناصبنا وتبارزنا ولا تكف عن الأذى مادمنا فى الجسد . قال الرسول : « إن الجسد يشتهى ضد الروح والروح ضد الجسد . وهذان يقاوم أحدهما الآخر » (غل ٥:١٧) وهذا العراك دائم مادمنا فى الجسد . ولكن الموت يفصل بيننا وبين هذا النزاع فتتوقف الحرب ويهدأ الخصام ، وكما قال الرسول : « لأن الذى مات قد تبرأ من الخطية » (رو ٦:٧) . فبالموت يتم الانتصار ويبطل الخوف ويكون السلام التام .

انظر إلى الحياة ترها جهاداً فى جهاد وتعبا وألماً وحزناً وبؤساً ، وأصوات البكاء تتردد فيها ، وأنات الأتعاب وزفرات الآلام تتصاعد من كل قلب معلنة صنوف الشقاء . وهذه كلها لا تنتهى حتى ينتهى الجسد . ومتى تأملنا فى كل ما حولنا صرخنا مع النبى قائلين : « قوموا واذهبوا لأنه ليست هذه هى الراحة » (مى ٢:١٠) ، وأعطينا الغبطة للذين رقدوا ، ولسان حالهم يقول مع المرتل : « ارجعى يانفسى إلى موضع راحتك لأن الرب قد أحسن إليك » فهذه الدنيا ليست راحة لنا ، فإننا سنبقى فيها معذبين إلى أن نستريح بالله .

لو وعد أحد الملوك شخصاً بائساً بأنه بعد زمن قصير يُسكنه فى قصره الفاخر الممتلىء بكل أنواع الأبهة والجلال ويجلس على مائدته ويكون فى حضرته على الدوام ، ألا يقضى ذلك المسكين أيامه بأنين من الشوق منتظراً قرب الأجل لإتمام وعد الملك له ليترك كوخه الحقير ويقطن ذلك القصر البهيج ؟ على هذا المثال قد أعد الله لنا

مكاناً فى السماء ووعدنا بأن نكون معه . قال ربنا له المجد : « فى بيت أبى منازل كثيرة . وإلا فإنى كنت قد قلت لكم . أنا أمضى لاعدّ لكم مكاناً . وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتى أيضاً وآخذكم إلىَّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً » (يو ١٤:٢،٣) وقال الرسول : « وهكذا نكون كل حين مع الرب » (١تس ٤:١٧) . وقد وعدنا بالميراث الأبدى والمجد معه فى السماء . وكل مجد العالم لا يساوى ذرة بالنسبة لبهاء الملكوت . وكل دهور الحياة الدنيا لا تقاس بدقيقة من دقائق السعادة الأبدية . فلماذا لا تلتهب قلوبنا شوقاً وانتظاراً لرؤية وجه الرب والعتق من دار الألم والتعب للوصول إلى دار مجد يفوق العقول ؟ ومتى أقبلت ساعة خروجنا من العالم ، ألا يجب أن نفرح حين نفارق عالماً حقيراً زمنياً لندخل عالماً سعيداً أبدياً ؟ ما أحب تلك الساعة لدى الصديقين ! فإنهم يلاقونها بتهليل ، إذ بعد قليل يتمتعون برؤية مخلصهم .

إن نظرة واحدة فى وجه مخلصهم المبارك لهى أثمن بما لا يقاس من ألوف مثل هذا العالم . ومن ذا الذى يحزن ويجزع وهو يعلم أنه منطلق إلى بيت أبيه لينال ميراثه الأبدى حيث لا دموع ولا وجع ولا بكاء ولا حزن بل شبع وسرور ومجد لا ينعت ، وميراث لا يفنى ولا يضمحل ، وأبدية لا تنتهى ؟ ومن لا يقول حينئذ مع داود النبى : « كما يشتاق الأيل إلى جداول المياه هكذا تشتاق نفسى إليك ياالله ؟ عطشت نفسى إلى الله إلى الإله الحى . متى أجىء وأتراءى قدام الله » (مز ٤٢:١،٢) ويقول مع بولس الرسول : « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً » (فى ١:٢٣) .

وله المجد دائماً .

العظة العاشرة

خــدم جيــله

« لأن داود بعدما خدم جيله بمشورة الله رقد »
(أع ١٣ : ٣٦)

إذ كان الرسول بولس يتحدث فى مجمع اليهود فى أنطاكية بيسيدية ، لخص تاريخ حياة داود فى هذه العبارة الوجيزة : « خدم جيله بمشورة الله » .

وبنعمة الله وإرشاد من روحه القدوس نتكلم عن :

١ ــ خــدم :

لم تكن الخدمة قديماً مطلوبة من الملوك والأنبياء والكهنة فقط ، ولا هى الآن مطلوبة من خدام الله فقط ، بل هى دائماً مطلوبة من كل واحد .

فكل إنسان فى الوجود أخذ من يد الله وزنة أو وزنات . والقصد من إعطائه هذه الوزنات هو أن يتاجر بها لينميها ، أن يستغلها لا أن يدفنها ، أن يستخدمها فيما يعود عليه وعلى جيله بالخير الجزيل . والمؤمن بصفة خاصة ينبغى أن يخدم « فما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط » . ويقول بولس الرسول : « ليس أحد منا يعيش لذاته ، ولا أحد يموت لذاته » (رو ١٤ : ٧) .

وخادم الله بصفة أخص ، صغيراً كان أم كبيراً ، ينبغى أن تكون حياته حياة خدمة ، ومثله الأعلى فى هذا هو الرب يسوع ، الذى قال : « إن ابن الإنسان لم يأتِ لِيُخدم بل ليخدم ، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مت ٢٠ : ٢٨) . وفرق بين خدمة وخدمة . فهنالك خادم يقوم بخدمته بطريقة آلية دون أن يكون له هدف من خدمته . وهنالك خادم يقوم بخدمته بقصد إنجاز مصالحه الشخصية فى آية صورة من صورها . وهنالك خادم يقوم بخدمته منزهة عن الأغراض الشخصية .

إن العالم اليوم فى أشد الحاجة إلى الخدمة التى تخفف آلام المتألمين ، وتواسى مرضى الروح والنفس والجسد ، وتعزى الحزانى ، وتحل المشاكل المعقدة . ولن يرتاح بال المجتمع إلا عندما تنتقل الخدمة من مستواها الحاضر إلى مستوى الخدمة الحقيقية المضحية التى تنفق بلا حدود ولسان حال الخادم ينبغي أن يكون دائماً وأبداً « لست أحتسب لشيء (لست أحسب حساباً لشيء) ، ولا نفسى ثمينة عندى ، حتى أتمم بفرح سعيى والخدمة التى أخذتها من الرب يسوع » (أع ٢٠:٢٤) .

٢ ــ وداود « خدم جيله » :

لقد بدأ خدمته فى رعاية الغنم بأمانة كاملة . وقد كان فى هذه الخدمة مثال « الراعى الصالح الذى يبذل نفسه عن الخراف » ، لأنه جاء مرة أسد مع دب وأخذا شاة من القطيع ، فخرج وراءهما وقتلهما وأنقذ الشاة من فيهما ، مع ما كان فى هذا من تعريض حياته للخطر المحقق .

وبعد ذلك خدم كملك ، فقام أيضاً بدور الملك الساهر على رعيته ، ووصلت المملكة فى عهده وعهد ابنه سليمان إلى عصرها الذهبى .

ونحن عندما نتأمل فى الجيل الذى نعيش فيه نجد أنه قد وصل إلى الحضيض . فالمستوى الروحى ضعف جداً رغم ما نراه من إقامة نهضات روحية كبيرة فى الكنائس ، وفى ذهاب الشعب إلى الكنائس . بل نرى المستوى الأخلاقى والأدبى قد تدهور ووصل إلى درجة يرثى لها . نرى شيطان الانقسام يعمل جاهداً لتمزيق رُبط الحياة العائلية ، وتمزيق الجماعات والجمعيات ، وتمزيق الكنائس بكيفية مزعجة جداً . ونرى شيطان الفساد يعمل بنشاط أوفر . ففى كل يوم تبتكر الإغراءات الجديدة التى تدفع بالشبان والشابات . والرجال والسيدات إلى الاستهانة بالمثل الأخلاقية العليا .

والمطلوب من كل واحد أن يخدم جيله ، يخدم المحيط الذى يعيش فيه والدائرة التى يعمل فيها . مطلوب من كل واحد على الأقل أن يصلى ، « فطلبة البار تُقتدر كثيراً فى فعلها » (يع ٥:١٦) . لما تلفت إرميا النبى حوله ورأى الجيل الذى يعيش فيه قد وصل إلى حالة مُزرية جداً من النجاسة والفساد والإرتداد ، قال كلمته المعروفة : « ليت رأسى ماء وعينى ينبوع دموع فأبكى نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبى » (إر ٩:١) .

٣ ــ وداود خدم جيله « بمشورة الله » :

كانت مشيئة الله هى الموجهة له فى كل خدمة وكل حركة . كان يعمل دائماً وأبداً على إرضاء ضميره وإرضاء مشيئة الله . سنحت له الفرصة مرتين للفتك بسهولة بشاول ، عدوه اللدود الذى كان يطارده طالباً قتله ، لكنه رفض انتهازها .

والذى أعان داود كثيراً فى كل أدوار حياته هو صلته الكاملة بإلهه ، واعتماده على قوته القادرة على كل شيء . لما كان شاباً حديث السن ، غير متدرب على الفنون الحربية ، أعزل من كل سلاح ، وقف أمام جليات المتحصن بكل الأسلحة والكامل التدريب فى الحروب ، وقال له : « أنت تأتى إلىَّ بسيف وبترس وبرمح ، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود » (١صم ١٧:٤٥) . والذى قاد داود إلى هذه الصلة الكاملة بإلهه هو درايته الكاملة بكلمة الله وتأملاته المستمرة فيها نهاراً وليلاً ، حتى سكنت فى قلبه بغنى .

٤ ــ ويقول بولس الرسول إن داود بعد أن خدم جيله « رقد » :

أى أنه لم يرقد إلا بعد أن أكمل المهمة التى كانت مطلوبة منه . وفى هذا كان كسيده الذى قال فى صلاته الأخيرة : « العمل الذى أعطيتنى لأعمل قد أكملته » (يو ١٧:٤) .

وعندما كان على الصليب ورأى أن عمل الفداء الذى لأجله جاء إلى العالم قد تم ، قال كلمته المعروفة « قد أكمل » (يو ١٩:٣٠) .

سعيدة هى النفس التى إذا ما اقتربت ساعتها الأخيرة تستطيع أن تقول : « قد أكمل » . هذا ما قاله الرسول بولس فى ساعاته الأخيرة : « إنى أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر . قد جاهدت الجهاد الحسن ، أكملت السعى ، حفظت الإيمان ، وأخيراً وضع لى إكليل البر » (٢تى ٤:٦ــ٨) ، وكلمة « رقد » ، أى نام ، طالما رُددت فى العهد القديم والعهد الجديد للتعبير عن موت القديسين .

ليت الرب يُعيننا لكى نتمم سعينا بسلام ، مكملين القداسة فى خوفه .

ولربنا ولإلهنا المجد الدائم آمين .

العظة الحادية عشر

مـــوت الأطفـــال

« .. ياسيد أنزل قبل أن يموت ابنى »
(يو ٤ : ٤٩)

الأطفال حينما يموتون يتخلصون وهم صغار من عالم الإثم وشر الخطية بانتقالهم سريعاً إلى صروح الأمجاد العلوية ومقر الراحة الأبدية فما أحسن الإيمان أن نتحقق أن أولادنا فى السماء ونتأكد من سعادتهم . ومنَ يعلم ماذا يصيب الأطفال الباقين فى الدنيا عندما يكبرون ؟ ربما يعيشون ويفقدون تلك الحياة المجيدة فى عالم الأبدية . أما ذلك الطفل الذى نقله الله إليه ، فلا شك أنه ملاك طاهر ضمه إلى صفوف الأطهار . فالطفل لم يُفقد ، بل هو حى فى السماء عند الرب .

أيها الوالدون ، إنكم تودون كل السعادة لأولادكم ، وتصلون لأجل نجاحهم وخلاصهم ، وتسعون بكل قوتكم لإيصال كل خير لهم . وإذا عرض لأحدهم مرض تنسون أنفسكم وتسهرون عليه وتبذلون أنفسكم ، ولا تبالون بحياتكم لأجله ، لأنكم ترغبون كل الرغبة فى أن يحصل على أسمى سعادة . ألم تنذر أيها الوالد ولدك عند المعمودية بأنه يجحد الشيطان وينكر الإثم ويعيش لله ؟ فما بالك تغضب الآن وقد حصل على نصيب أحسن مما تمنيته له ، وحاز مجداً وسعادة أبدية ، وتخلص من أتعاب الحياة ومشاهدها المملوءة بالأوجاع ؟ ربما يقول والد إن ولده كان ذكياً عاقلاً ، وكانت آثار النباهة بادية عليه منذ طفولته ، ولو عاش لعُدّ من الرجال الحقيقيين ونال كذا وكذا . لنفرض أنه عاش وظهرت علامات حذقه ومهارته وبلغ شأناً كبيراً فى الحكمة والعلم والمجد . فهل تقيسون حكمة الأرض بما حصل عليه من الحكمة فى السماء ؟ هناك تكشف له أعماق السرائر ، وتظهر له المكنونات ، ويُدرك مالا يستطيع أن يُدركه أكبر الفلاسفة هنا . فهو الآن فى مدرسة المخلص ، يعرف مقاصد الله ويطلع على حكمة عنايته ، هناك يرافق موسى وصموئيل وداود وإشعياء وباقى الأنبياء والرسل ، ويُدرك كل شىء . وما هى مراتب المجد العالمى بالنسبة لبهاء ذلك المجد الذى حصل عليه فى السماء !؟ كان بالأمس ولداً صغيراً على ذراعى أمه يتلهى بألعابه ، أعمى عن

إدراك أقل شيء ، لا يعرف ما ينفعه مما يضره ، فأصبح الآن ملاكاً بين زمرة الأطهار . وقواه العقلية التى كانت لا تزال فى بدء نموها أضحت الآن كاملة . هل تود أيها الوالد أن يرجع ولدك ويطرح من يده قيثارته الذهبية ويعود إلى ألعابه الأرضية ؟ أتريد أن يعود طفلاً يمرض ويتألم ويعيش فى الجهاد والألم ثم يموت ؟ إنه لا يريد أن يبدل عشرة الملائكة والقديسين بعشرة سكان الأرض ، ولا يود أن يغير منظر الأمجاد السماوية بالنظر إلى شقاء وتعاسة هذه الدنيا ، بل لا يريد أن يبدل ساعة واحدة من ساعات مجده بعشرة آلاف عام فى مثل هذا العالم .

اعلم أيها الوالد أن ولدك الذى خُطف من بين يديك لم يسرقه سارق ، ولا ذهب إلى أرض موحشة ، بل إن الرب نقله من ميدان الحروب ومعمعة الشر والخطر إلى حصن الأمن والسلام ، حيث يتمتع بالمجد فى النعيم . ولو بقىَ على الأرض لصرف أيامه فى الشقاء والتعب والجهاد كما تشعر أنت الآن . لقد تخلص من آلام الدنيا وخرج من قفارها حيث لا تقدر مصائبها أن تصل إليه .. نُقل من تربة الدنيا المعرضة للزوابع وريح السموم وغُرس فى جنة الله . فهل هو عزاء قليل أن تعرف وتتحقق أن ابنك فى السماء ؟

إن تلك الأزهار اليانعة التى كانت تزهر وتزهر فى رياض العالم ، وذبلت من الدنيا ، قد أزهرت الآن فى فردوس الله . وهاتيك الشهب الصغيرة التى غابت عن عيوننا ونظن أنها أطفئت ليست إلا محتجبة وراء الأفق ، وتضيء الآن بلمعان ساطع فى ديار المجد والنعيم . وتلك الجواهر التى كانت مرصعة على أعناق الوالدات رصعت بالمجد فى ذلك الملكوت الأبدى . وتلك الشفاة الصغيرة التى ما كانت تقدر أن تنطق بتسبيح اسم الرب تنادى الآن بألذ أناشيد الحمد والخلاص ، وترنم ترنيمات الشكر والسعادة للجالس على العرش . فكفكف عن أحزانك أيها الوالد (أو أيتها الوالدة) ، وامسح عبراتك ، فإن ابنك الذى انفصل عن ذراعيك الأبوية هو الآن على ذراعى المخلص . هل كنت تود لولدك الوقوع فى الآلام التى تعانيها أنت الآن والمرور فى تجارب كالتى تصيب باقى البشر ؟ هل كنت تريد أن يتمزق قلبه كما يتمزق قلبك الآن ، ويشاهد ما تشاهده من مناظر الشقاء والتعاسة التى تراها فى الدنيا كل حين ؟ أليس مسيره إلى السماء بدون دخوله جحيم الآلام ونيران عذاب هذه الحياة مما ينبغى أن تقدم لأجله الحمد والشكر للعناية السامية التى أنقذته من الأوجاع ؟ تذكر الجهاد الذى جاهدته فى العالم والأخطار المحيطة بك ، وحينئذ تشكر الله على وصول ولدك إلى مواطن السلام

بلا مشقة ولا جهاد . وإن قلت إن فراق الولد خطب صعب لا يُحتمل ، اجبتك بنعم . لكن مصائب العالم وأتعابه خطب أصعب . لعلك وضعت كل محبتك فى ولدك فاختطفه الله منك لتوجه قلبك إليه ، ورفعه إلى السماء لترفع أنت أيضاً أفكارك إلى فوق حيث المسيح جالس .

قال السيد المسيح لتلاميذه : « خيرٌ لكم أن أنطلق » (يو ١٦:٧) لأنه لو بقى على الأرض لبقيت أفكار التلاميذ معلقة به على الأرض ، ولكن لما ارتفع عنهم إلى السماء ارتفعت أفكارهم إلى فوق .. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك . فطالما بقىَ أحباؤنا الذين نحبهم معنا على الأرض فلا تزال أفكارنا فيهم . ولكن إذا امتدت يمين العلى ونقلتهم إلى مقاصير السعادة الأبدية ، صعدت أفكارنا إليهم وتأملنا فى نصيبهم ومجدهم وطلبنا أن نسلك طريقهم للوصول إليهم أخيراً . وكثيراً ما يخطف أعز ما تتعلق به قلوبنا ، وأهم ما نتكل عليه — سواء من الوالدين أو الأولاد أو الأصدقاء — حتى يبقى هو وحده ، تعالى ، ركن إيماننا . وموضع اتكالنا ورجائنا وأعز من يملك على قلوبنا .

ولو أمكن للأولاد المنتقلين أن يخاطبونا وأمكن لنا أن نسمع أصواتهم لسمعناهم يقولون بنغمة الفرح إن الذى خلقنا يحبنا ولم يرضَ أن نذوق مرارة شقاء الدنيا ، ودعانا سريعاً إلى مجده ، فلبينا الدعوة فرحين ، وخضعنا لإرادته شاكرين ، ونحن الآن فى غبطة لا تخطر على بال أحد من سكان الأرض . لقد أصبحنا أنقى من ذرات النور وأبهى من الشمس ، حيث ننتقل من مجد إلى مجد ، ومن نعيم إلى نعيم ، ونتردد على سعادات لا توصف . فلا تبكوا علينا بل ابكوا على أنفسكم لأنكم لا تزالون فى الشقاء فى أرض المنفى . أما نحن فقد رجعنا إلى وطننا الدائم . مساكين أنتم الآن فيما تعانون فماذا كنا نصادف فى العالم لو عشنا على الأرض كما أنتم الآن عائشون ؟ فالحمد لله على النصيب الصالح الذى منحه لنا . فلماذا نراكم أيها الوالدون تحزنون وتبكون على نصيبنا السعيد الذى سبقنا فنلناه . قد سبقناكم إلى المجد . فإن كنتم تحبوننا ففكروا فى نصيبنا ، وليكن همكم وأنتم على الأرض أن تحصلوا على مثل ما حصلنا عليه إلى أن يقضى الله بمجيئكم إلينا ، وحينئذ تقدرون أن ترونا ونراكم ونكون معاً إلى الأبد بلا افتراق ولا انفصال . لا تبكوا علينا ، بل اخضعوا لما رسمته المشيئة الإلهية ، لأنه هكذا أنعم الله علينا ، فالحمد لاسمه العظيم . ومتى تأملتم خسة الدنيا وتغيّر الزمان وقصر الحياة وقارنتموه بأمجادنا الأبدية . وأدركتم عناية الله ، اعترفتم بمحبته التى نقلتنا من

أحضانكم إلى أحضان الرحمة الأبوية . قبلاتكم التى كنت تقبلوننا بها لا تساوى شيئاً مما نشعر به الآن من محبة . فخلوا عنكم الحزن والألم ، وإياكم والاعتراض على أعمال الله ، فإن ما يتراءى لكم أنه قساوة نراه نحن عطفاً ، وما ظننتموه غضباً حسبناه نحن رحمة ومحبة . ولا تقولوا إننا خرجنا من العالم فى أوائل الحياة ، فإننا قضينا الغاية من الوجود وهى الحصول على السعادة والمجد والتمتع بالله إلى الأبد ــ تلك الغاية التى لم تبلغوها أنتم بعد ، والتى نرجو أن تحصلوا عليها . وها نحن الآن نرتل مع الملائكة ترنيمة جود الله ونسبحه كل حين على هذه النعمة . فلا تنكروا أنتم هذا الإحسان والجود ، بل اشكروا الله وتعزوا بأن لكم أولاداً فى السماء يقفون أمام الله ويرونَ وجهه كل حين .

وله المجد دائماً .

العظة الثانية عشر

مــوت الشــباب

« أيها الشاب لك أقول قم »
(لو ٧:١٤)

إن تشييع الجنازة إلى القبر من أكبر المشاهد المحزنة التى يتوجع لها القلب . فإنه منظر يرينا مصير الإنسان ويذكرنا بزوال الحياة وبطلان العالم ، وينصب أمام عيوننا تمثال الموت المريع وسطوته وبأسه .

وكل ذلك مسبب وناتج فى الأصل عن الخطية . فإن الله عمل كل شىء حسناً . ولكن خطية آدم ومعصيته جلبت الموت على الجميع . قال الرسول بولس : « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت ، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (رو ٥:١٢) .

وبنعمة الله وإرشاده نتكلم عن النقاط الآتية :

أولاً ـــ إن الدنيا دار أحزان متواصلة :

من يستطيع أن يصف مقدار الأحزان والبلايا التى تحيق بجميع الساكنين على الأرض ، فتعكر صفوهم ، وتحطم آمالهم ، وتحول فرحهم حزناً وطربهم كدراً واجتماعهم فراقاً وحياتهم موتاً ؟ وقد شهد بذلك جميع رجال الله . قال أيوب : « كلت عينى من الحزن » (أى ١٧:٧) . وقال إرميا : « أما إليك ياجميع عابرى الطريق . تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى » (مراثى ١:١٢) . وقال داود النبى : « وحزناً فى قلبى كل يوم » (مز ١٣:٢) . وقال سليمان الحكيم : « أيضاً فى الضحك يكتئب القلب ، وعاقبة الفرح حزن » (أم ١٤:١٣) .

فالحياة كلها سلسلة أوجاع وأحزان لا يفلت منها إنسان ، مهما عظم شأنه ، حتى أن رب المجد ، لما ارتضى أن يسكن أرضنا ، خضع لهذا الناموس العام ، وصرخ قائلاً : « نفسى حزينة جداً حتى الموت » (مت ٢٦:٣٨) .

ثانياً ــ يسوع هو المعزى الوحيد :

إن هذا الموت المريع الذى يخافه الناس ، والذى يورث الويلات والحسرات ، لا يستطيع أن يقف أمام يسوع . بل أن سيدنا ، له المجد يستطيع أن يحوله إلى سبب راحة عظيمة ، ويجعله ينبوعاً لسرور مستديم . نعم ، إن للموت سلطاناً عظيماً على جميع الناس ، مهما كان شأنه . فَغنى الغنى أمامه يصبح كالتراب ، وقوة الجبار لديه تصير ضعفاً وخوفاً .

دخل الموت بيت الأرملة المسكينة ، وخطف ابنها من بين يديها وخرج دون أن تقوى على منعه ، مع عِظم محبتها لولدها .

كثيرة هى أحزاننا ، وعديدة هى أوجاعنا وهمومنا . فى مصائبنا وأمراضنا وشدائدنا من يكون مقوياً لنا ؟ إنه يسوع المخلص ، الذى قال فى مواعيده : « أنا أعزيهم فى ضيقاتهم » (٢كو ١:٤) . محبته وقدرته هما اللتان عزتا قلب الأرملة . هو رب الحياة ، يعطيها لمن يشاء . وهو يستطيع أن يوقف تدفق الدموع ، ويمكنه أن يلاشى الأحزان . كانت كل طُرقه ومساعيه وآثار أقدامه فرحاً للباكين وبهجة للحزانى . ما أسعد الموضع الذى يحل فيه . المكان الذى يتشرف بوجوده يصبح سماء مجيدة ، تزول منه الأوجاع وتختفى الهموم ويهرب الموت . فالإنسان بسقوطه جلب لنفسه الحزن ، وجاء يسوع ليُقيم الإنسان ويرد له السلام فهو القائل : « لأعزى كل النائحين . لأجعل لنائحى صهيون لأعطيهم جمالاً عوضاً عن الرماد ودهن فرح عوضاً عن النوح ورداء تسبيح عوضاً عن الروح البائسة » (إش ٦١:٣) .

تراءف يسوع بدون أن يُسأل . لم يطلبوا منه أن يُقيم الشاب ، ولكن دموعهم كانت لساناً فصيحاً فى طلب الرحمة . رأى الجميع يتنهدون ويبكون ، فتحنن . أشفق على أولئك المنكوبين . ومن كيسوع يُشفق على المتضايقين ؟ ومن مثله يرثى للحزانى ؟ إنه صديق الجنس البشرى ، وهو يحمل ذلك القلب العطوف المملوء حنواً .

فلنطلب يسوع لكى يحل فى وسطنا ، ويمتلك قلوبنا ونفوسنا وبيوتنا وبلادنا . فإذا وُجد نأمن شر جميع الأخطار ، ونَنال كل تعزية وفرح ، مما لا نستطيع أن نحصل عليه بدونه . قال أيوب عن أصحابه : « معزون متعبون كلكم » (أى ١٦:٢) . ولكن المرتل يقول عن الله « عند كثرة همومى فى داخلى تعزياتك تلذذ نفسى » (مز ٩٤:١٩) . وقال إشعياء النبى : « ترنمى أيتها السموات وابتهجى أيتها الأرض . لتُشِدِ

الجبال بالترنم لأن الرب قد عزى شعبه ، وعلى بائسيه يترحم » (إش ٤٩ :١٣) . وقال إرميا : « حينئذ تفرح العذراء بالرقص والشبان والشيوخ معاً وأحول نوحهم إلى طرب وأعزيهم » (إر ٣١ :١٣) . فيسوع المسيح هو مصدر التعزية الوحيد وليس من معز غيره . قال بولس الرسول : « لأنه كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا » (٢كو ١ :٥) .

ولأجل هذا يوجد فرق عظيم بين افتراق المؤمنين وافتراق غيرهم ، لأن رجاء المؤمن وإيمانه يرفعانه بقوة سمائية خارقة للعادة ، فيتغلب على مرارة أحزانه ، وينصره إتصاله بالعالم العلوى على عوامل الإفتراق المحزن . إن المؤمن الذى يرى الموت متقدماً لفصل روحه عن جسده لا يرتعب ، لعلمه أن روحه لا تدوم فى الموت ، إذ يتسلمها يسوع منه ويأمره بتركها . إنه يرى من وراء الموت يد المسيح الحنون فيسر لعلمه أن الموت سيُقدم روحه صاغراً لمولاه الأمين « أين شوكتك ياموت . أين غلبتكِ ياهاوية » (١كو ١٥ :٥٥) .

« شكراً لله الذى يُعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١كو ١٥ :٥٧) .

ثالثاً ـــ يسوع قادر أن يُقيم من موت الخطية :

لا شك أن الذى يُعيد الحياة إلى الميت مرة أخرى هو رب الحياة نفسه ، والذى يُقيم الجسد الفاسد قادر أيضاً أن يُحيى الروح عديمة الفساد من موت الخطية .

الخطية مرض يفسد كل قوى الإنسان ، ويعطل عمل العقل والإرادة وحواس القلب والضمير ، ويصيب المرء بضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تُلَّين بالزيت (إش ١ :٦) .

فنفس الخاطىء ميتة لأنها فى حال الجهل التام . كما أن الميت لا يدرى بما يجرى حوله ، هكذا الخاطىء لا يعرف شيئاً عما يدبره الله لخلاصه ونجاته . عين الميت لا تنظر ، وأذنه لا تسمع ، ولسانه لا ينطق ، وقلبه لا يخفق ، هكذا الخاطىء مهما سطع نور الإنجيل باهراً فهو لا يراه ، ومهما رن صوت البشارة عالياً فلا يسمعه . ومهما كان الرب طيباً فلا يذوقه ، ولا يعرف قيمة محبته حتى يحبه .

وكل ما خلقه الله جميلاً فى الإنسان تُفقده الخطية جماله . مهما كان الوجه جميلاً صبوحاً فإنه بالموت يصير شنيعاً ومشوهاً . قال إبراهيم عن سارة امرأته : لأدفن ميتى

من أمام عينى . كأنه لم يعد يطق مجرد النظر إليها . وهكذا حال الخطية ، فإنها نزعت من الإنسان جماله الأصلى الذى خُلق فيه وصيرته فى عينى الله كميت ، لأن الشر والإثم أفسد وأنتن فى عينى الرب من الجيف الفاسدة النتنة فى عينى البشر ، وحنجرة الأشرار أكره لدى الله من قبر مفتوح .

ليتك تسمع أيها الخاطىء صوت الله يناديك : « لك أقول قم . لا تردد ، فالرب أوقف الحاملين لكى لا يسرعوا بك إلى القبر . إن السنين التى أعطاها لك تدل على أنه لا يحب أن تموت عاجلاً بخطيتك . وها هو يرفع يده ويُشير إليك لكى تقوم وتطرح عنك أكفان العادات الرديئة . فانظر إليه عاجلاً . قم واشكر من أحياك . قال السيد المسيح ، له المجد : « إن من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ، ولا يأتى إلى دينونةٍ ، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة . الحق الحق أقول لكم إنه تأتى ساعة وهى الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون » (يو ٥:٢٤،٢٥) .

فالسامع المطيع يدخل الحياة الجديدة ، حياة مقاومة الخطية والنمو فى القداسة . فانظر أيها الخاطىء إلى نفسك تراها ميتة عديمة الحركة الصالحة . تأمل تلك الأم الأرملة وهى تبكى وحيدها ، كيف أن دموعها جفت لأن يسوع أعاد إليه الحياة . لازال يسوع يجول بيننا فى كل وقت . هو يطوف فى كل مدينة ويدخل كل بيت ليمسح دموع الباكين ويخفف لوعة الحزانى قائلاً : لا تبكوا . فلماذا تئن مثقلاً من هموم مختلفة وأمامك من وعد بأن يحملها عنك ؟ هذا هو ملاك العهد الذى نزل من السماء إلى الأرض ، وفتح الأبواب المغلقة ، نادى للمأسورين بالإطلاق ، ثم ذهب إلى بيوت النائحين والباكين ، ومسح دموعهم . فلنطلب إليه لكى يأتى ويمنحنا الحياة .. فلا حياة بدونه ، كما قال الرسول بولس : « لأنه كما فى آدم يموت الجميع هكذا فى المسيح سيُحيا الجميع » (١كو ١٥:٢٢) .

له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس إلى الأبد آمين .

العظة الثالثة عشر

مـــوت الـــزوجـــة

« وماتت سارة ... »
(تك ٢٣:٢)

رباط العائلة أمتن الروابط ، وهو أساس كل نظام . والعلاقة بين الزوجين وثيقة العرى ومقدمة على كل العلاقات النسبية زمناً وطبعاً ، لأن الله هو الذى رتبها ومكنها وفضلها على كل الأنساب بقوله : « يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً . إذن ليسا بعد اثنين بل جسد واحد » (مت ١٩:٥،٦) والمحبة بين الزوجين شبهت بمحبة المسيح للكنيسة (أف ٥:٢٥) . فالزوجة للزوج جسده . والزوج الصالح يتخذ امرأته صديقته وحبيبته وخزانة أسراره ؛ مفرّجة همومه ومدبرة أموره . وهى تعزيته فى كل أحواله . يسر بعشرتها ، ويغتبط بمحبتها . إذا مرض عالته ، وإذا تألم تألمت لأجله ، وإذا تعب حملت معه أتعابه .

وبما أن الموت متسلط على الجميع ولا ينجو أحد منه ، فكثيراً ما يشهر سيفه ويقطع ذلك الرباط ، ويفرق بين الحبيب وحبيبته . وبمقدار محبة وألفة الزوجين يكون الألم والحزن لفراق أحدهما الآخر .

ومَن أصيب بمثل هذه التجربة لا يجد عزاءه إلا فى الإيمان . فإن الكافر لا يجد عزاء فى شىء لأنه لا يؤمن بشىء ولا يستند على صخر الدهور الأبدى . ومتى تأمل المؤمن عرف أن زوجته وحبيبته لم تمت ولكنها نائمة ، ولم تُفقد ولكنها فى السماء ، خلعت عنها الجسد الترابى وصعدت روحها إلى مسكنها الأبدى ، وأنه سيلتقى بها يوماً ما فى حياة لا فراق فيها ولا دموع . ومتى واظب على درس كلمات الوحى وتمسك بالإيمان وأكثر من الصلاة طلباً للعزاء الإلهى ، يشعر بالراحة والاطمئنان ، ويمتلىء قلبه بالصبر والخضوع لأحكام مشيئة الله ، وفى ذلك كل العزاء والسلوان . ولكن إذا أكثر من الضجر والاعتراض والتذمر والشكوى ، فلا يجديه ذلك سوى زيادة الألم .

نعم ، إن القوة البشرية ضعيفة أمام آلام الحياة وما أقل صبر الإنسان على احتمالها . ومن يجتاز فى الحياة متحملا أثقالها على كاهله دون أن يسقط مراراً قبل وصوله ؟ ولكن لنعلم أن الله لا يدعنا نحمل عبء الحياة ومتاعبها وأحزانها وحدنا ، بل يضع النير على أعناقنا ويحمله معنا ويخفف عنا الأحمال ، ولا يتركنا ولا ينسانا . وبينما نظن أنه بعيد عنا يكون هو أقرب إلينا من نفوسنا . وكلما أحاطت بنا غيوم الحيرة والارتباك ازددنا تعليماً بدرس الثقة بالله والاتكال عليه وحده والخضوع لعنايته . وليس من حقنا أن نعرف إيضاح كل تصرفات الله معنا ، كما لا يستطيع الولد الصغير أن يعرف تأديبات وتصرفات أبيه معه . غير أن لنا فى مواعيده الأمينة أنه لا يتركنا عند الضيق والتجربة ، ولا يهملنا فى أوان الحزن والشدة ، بل فى أشد الأهوال وأصعب الأحوال يلقى فى قلوبنا ملء الإيمان ويهبنا العزاء الوافر ، ويصدق علينا قوله لبطرس : « لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع بك ، ولكنك ستفهم فيما بعد » (يو ١٣:٧) هكذا نحن لا نفهم أعمال الله معنا فى زمن الافتقاد والبلوى . ولكن إذا صبرنا والتصقت قلوبنا به ، حينئذ تتجلى لنا محبته ويفيض علينا عزاؤه . لقد أجاز الرب شعبه إسرائيل فى البحر ، ثم أدخلهم إلى البرية ، ثم جاء بهم إلى أرض الموعد . وهكذا يقود الله شعبه مراراً كثيرة ويجيزهم فى الماء والنار والجبال والقفار ويأتى بهم أخيراً إلى الراحة . فطوبى لمن يخضع لمشيئته ولا يتذمر على عنايته وأعماله .

ما نقدر أن نمنعه ومالا نقدر أن نمنعه لا يجب أن نتذمر منهما . فما نقدر أن نمنعه لا داعى للتذمر منه طالما فى أيدينا منعه . أما مالا نقدر أن نمنعه فماذا يجلب لنا التذمر إذن إلا زيادة الوجع والألم . فالطاعة والخضوع والصبر أولى بكثير من الضجر والشكوى .

إن المخلص ، له المجد ، كان أعظم مثال للطاعة . فقد كانت حياته لجة آلام وأحزان من المذود إلى الصليب . وقد قال فى أقسى أوقاته لأبيه . « لتكن لا إرادتى بل إرادتك » (لو ٢٢:٤٢) فهل يليق بنا أن نتذمر متى شاء الرب اقتيادنا بالتجارب لتهذيب نفوسنا ورجوعها إليه ؟ قال الرب : « اخترتك فى كور المشقة » (إش ٤٨:١٠) . وهل فى يدنا أن نختار نصيبنا ؟ وهل فى قدرتنا رفع ما يضعه الرب على أعناقنا ؟ ومَن منا يستطيع أن يرفع صوته ضد من بيده أمرنا ؟ هو الرب يفعل ما يشاء ، ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل ، وهو قادر أن يخفف ألمنا ويملأنا عزاء . فإن الفخار لا يترك آنيته فى النار حتى تحترق . وكذا البستانى ، فإنه إذا نزع بعض أشجاره فإنه

بذلك يحافظ على جذورها وأصولها فطوبى للنفس التى تقول من عمق قلبها بتسليم كامل « لتكن لا إرادتى بل إرادتك » .

لا يحدث أمر إلا وقد سمحت به عناية الله . وطالما نؤمن بحكمته وصلاحه ، فما بالنا لا نتركه يتصرف فينا كيف شاءت مسرته ؟ ولكن إذا تركنا الإيمان وبعدنا عن كلام الله وأسندنا مصائبنا إلى علل طبيعية جداً ، وخسرنا . عزاء الإيمان حين نبتدىء نقول : لو عملنا كذا وكذا لما حدث كذا . فهذه كلها تعليلات باطلة لا أساس لها سوى الظن الباطل وحكمة الإنسان الواهية . وليس وراءها سوى زيادة الألم والإفراط فى الحزن . ولنا فى صلاتنا « لتكن مشيئتك » . خير معزٍ ودليل قوى على الخضوع لأحكام الله فى كل ما يجريه معنا كل يوم ، ونحن نعلم أن مشيئته مقدسة وعادلة . إن الصحة والقوة والثروة والأحباء والأطفال وكل خير نملكه ما هو إلا هبات من الله ، له أن يستردها أو يبقيها بحسب إرادته ، ويزيدها أو ينقصها كما يوافق صلاحه . وكثيراً ما يرى أن كفة خيرات الدنيا رجحت على كفة خير نفوسنا ، وأننا علقنا قلوبنا على أمور زائلة . فيخطف منا بعض تلك الهبات حتى نلتصق به وحده وتعود نفوسنا لاجئة إليه ، وفى حماه نجد كل الأمن والعزاء .

الحزن على فقد الأحباء شأن الطبيعة البشرية ، والبكاء وسكب الدموع من دلائل رقة القلب . ومن لا تدمع عيناه ويبكى لفراق أحبائه فقد تجرد من خصائص الطبع البشرى . إن التصلب والجفاء علامة جمود القلب وقساوته . ألا ترى يسوع رب الكل وخالق الجميع فقد بكى عند قبر حبيبه لعازر كما بكى على أورشليم ؟ فالبكاء ليس خطية حين حلول المصائب والأحزان ، لأن من شأن الدموع تخفيف الحزن . وأبلغ الألم ما تجمد معه العين ويسكن فى الأحشاء دون أن يجد له منفذاً للخروج . فلا يخطىء من يذرف دموعه لفراق أحبائه ، وإنما الخطية فى التذمر على عناية الله . والحزن الشديد الذى بلا رجاء .

ما رأيت إنساناً فقد زوجته إلا وسمعت منه روايات وأحاديث عن حلاوة عشرتها وصدق إخلاصها وشدة وفائها ، وكيف كانت مثالاً للتضحية والأمانة . فيا أيها الزوج الذى ماتت زوجته ، إن كانت من فقدت على مثل هذه الخصال فلا تدع تذكاراتها سبباً لأحزانك ، بل اجعلها موضوعاً لتعزياتك بأنها انتقلت إلى السعادة العلوية والراحة السرمدية . اذكر أتعابها الماضية وأن الله أراحها سريعاً من آلام هذه الحياة المملوءة بالأوجاع . وإن كنت تحبها محبة حقيقية فبارك الله على نصيبها السعيد الذى نالته .

وإن شئت أن تراها يوماً فانسج على منوالها وسر فى طريق الله الموصلة إلى المجد . ولتكن هذه التجربة التى أصابتك نذيراً لك ببطلان هذه الدنيا . اعلم أن فرصة هذه الحياة قصيرة وأننا لسنا إلا فى دار غربة وأننا سائرون نحو الأبدية . فاسرع فى الرجوع إلى الله وارفع قلبك عن محبة هذا العالم وضع كل ثقتك وأملك فى السماء ، عالماً أننا مادمنا فى هذه الدار فنحن عرضة لنوائب عديدة وأرزاء متنوعة . فالبس عدة الصبر وخذ مصابك الحاضر دليلاً لك على أنك فى عالم الأحزان ووادى الدموع . واتخذ من هذا المصاب درساً آخر هو أن ترحم المصابين والمتألمين أمثالك ، الذين يئنون تحت وطأة بلاياهم . فلست وحدك المتألم والحزين ، ولا بيتك فقط هو محط الحزن ، لأنك لو تأملت لوجدت أن الجميع يئنون ويتوجعون تحت ثقل أحمال وعبء أحزان مختلفة الأشكال متنوعة الصنوف . وإنه من الواجب على كل إنسان أن يشترك مع الآخرين فى آلامهم ويواسيهم فى ضيقاتهم ومصائبهم .

وإن كان لك أولاد فاذكر كيف أنه تضاعفت عليك الواجبات . فاجتهد لتعوضهم ما خسروا بمحبتك لهم وعنايتك بتربيتهم . فسيكونون قرة لعينيك وستراهم يوماً كأغصان الزيتون حول مائدتك . واحذر من أن تبالغ فى محبتك لهم وزيادة شفقتك عليهم خوفاً من انكسار قلوبهم مما يجعلك تتراخى فى تربيتهم وتطلق لهم زمام أنفسهم وتعرض عن تقويمهم . فانتبه لذلك واحذره كل الحذر . وكن قدوة لهم فى التصرف . ومهد لهم طريق الصلاح . وعلمهم من مثالك ما يجعلهم رجالاً فضلاء أتقياء وبذلك تعيش فى الدنيا سعيداً ، وتجتمع أنت وأفراد أسرتك معاً أخيراً بالمجد فى دار النعيم حيث الحياة الأبدية والمجد الذى لا يزول .

ولربنا المجد دائماً .

العظة الرابعة عشر
مـــوت الـــزوج

« إن مات الرجل أفيحيا ... »
(أى ١٤:١٤)

ما قلناه عن موت الزوجة يمكن أن يقال عن موت الزوج لأن العلاقة واحدة . والرجل للمرأة رأسها . وأى جسد فقدَ رأسه ولم يتوجع !؟ فلا تلوموا الزوجة إذا بكت وذرفت دموعها كيف تشاء . ومن يقدر أن يمنع دموعها عن الجريان ؟ ولكن يوجد واحد فقط هو الذى يقدر أن يمسح دموعها ويحول بكاءها إلى أنهار تعزيات .. هو ذلك الحنون الذى تحنن على الأرملة وقال لها : « لا تبكى » (لو ١٣:٧) .. لا تزجزوها ولا تمنعوها عن البكاء ، ولكن ضعوا أمامها تعزيات الرب . دعوها تقرأ كلمات الله ، فهى وحدها القادرة أن تكفكف عبراتها . وفى الفصول الواردة فى هذا الكتاب كثير من الحقائق الإيمانية التى تعزينا فى غربة هذه الحياة ، وتعلمنا احتمال آلام الحزن والصبر على الضيقات ، وإلقاء نفوسنا بين يدى الروح المعزى القادر أن يملأها بعزائه وسلوانه .

أيتها الزوجة الحزينة ، إن بكيتِ وأكثرتِ من سكب الدموع فلا ينفعكِ من ذلك شيء غير زيادة الأسى والوقوع فى براثن الأمراض . وإن تضجرتِ وتذمرت على عناية الله فلا تحصدين إلا مضاعفة الحزن وتضيفين إليه اليأس وفقدان الإيمان . نعم ، إن الحزن شديد ، ولكن لنا من الله ما يخففه عنا .. وذلك بالإيمان والصلاة وتلاوة كلامه المقدس . ولكن إذا مزجنا ضيقاتنا بعقاقير الضجر ، وفقدنا الإيمان ، ازددنا حزناً وبعدت عنا كل تعزية . وعار على المؤمن أن يجزع فى زمن الضيق . ومادمنا نعرف أن إرادة الله لابد أن تتم ، فلماذا لا نخضع لها ؟ هل الحزن والبكاء يغيران شيئاً من مشيئته أو يعيدان من فقدناه ؟ وإن كان الحزن والدموع من شأن الطبيعة البشرية ، فلندع الدموع تجرى وحدها مع التسليم لله فى أحكامه وقضائه ، عالمين أن شدة الحزن خطية ضد الإيمان والرجاء . ولذلك قال الرسول بولس : « لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين لكى لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم . لأنه إن كنا

نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيحضرهم الله أيضاً معه » (١تس ٤:١٣،١٤) .

قد انتقل زوجك وخلص من أتعاب الدنيا ودخل بيت راحته الأبدى . وأى محب يود رجوع حبيبه إلى ميدان الكفاح بعد أن غلب وأنتصر ؟ قد فاز الجندى ووضع عليه الملك إكليل المجد وسلمه علامة النصر . فهل نتمنى أن يترك كل ذلك ويعود من جديد إلى الحرب ويكون عرضة لنيران الأعداء وهدفاً لسهام التجارب ؟ لقد أعيد المنفي إلى وطنه ودخل بيت أبيه . فهل نحزن ونشتهي رجوعه إلى دار الغربة ليقاسمنا ويلات هذه الدنيا ، ويتورط فى فخاخها ، ويسير بين أشواكها ، ويأكل من خرنوبها ، ويتألم بمصائبها ؟

اعلمى أيتها الزوجة أن زوجك الذى فارقك قد انضم إلى صفوف القديسين ، وهو يطرب الآن بعشرة الملائكة وسكان السماء . ولو تأملتِ خِسَّة هذه الدنيا وأمجاد النعيم ، وقابلت بين هذه وتلك ، وبين حياة الأرض الزائلة وحياة الملكوت الأبدية ، لعددت كل شيء فى الدنيا خسارة ونفاية بالنسبة لدقيقة واحدة من دقائق النعيم . فضعى إذن رجاءك فى الله ، وآمنى بأنك سترين زوجك فى القيامة المجيدة ، وثقى بأن جسده الذى رقد واستراح سيعود أبهى مما كان ، ويقوم فى عدم فساد . ليتك تقولين : ليسترح جسدك أيها الراقد الحبيب فى ضريحه بسلام . ولتتمتع نفسك بالخلود أمام الله . فإنك قد سبقتنا وسنلتقى بك يوماً فى حياة لا فراق فيها إلى الأبد .

إن التجأتِ أيتها الزوجة إلى رحمة المسيح وطلبت عزاءه يمنحك العزاء الوافر والسلام الكامل . لقد أصبحتِ أرملة وفقدت بعلك . ولكن لا تنسى أن المسيح من شدة محبته للكنيسة سمى نفسه بعلاً لها .. فهو يعرف مقدار حزنك ومرارة نفسك ويعلم ما تفتقرين إليه من التعزيات ، ولا تجدين العزاء إلا فيه . فإذا أطلقت لنفسك الحزن وجرت دموعك ، فلا تدعى الدموع تحجب قلبك عن رؤية المسيح ، بل اسمعى صوته يقول : « أنا هو القيامة والحياة . من آمن بى ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد . أتؤمنين بهذا » (يو ١١:٢٥،٢٦) وإن قلتِ لقد ترك لى أطفالا أصبحوا أيتاماً بلا أب ، فاعلمى أن الله هو أبو الأيتام وقاضى الأرامل ، واسمعى مواعيده « الرب يحفظ الغرباء . يعضد اليتيم والأرملة » (مز ١٤٦:٩) وهوذا قوله : « اترك أيتامك أنا أحييهم وأراملك علىَّ ليتوكلن » (إر ٤٩:١١) .. وقول هوشع النبى : « بك يُرحم اليتيم » (هو١٤:٣) .. وقول المرنم : « إليك يسلم

المسكين أمره . أنت صرتَ معين اليتيم ... لحق اليتيم والمنسحق لكى لا يعود أيضاً يرعبهم إنسان من الأرض » (مز ١٠:١٤،١٨) .. وقول الحكيم : « لا تدخل حقول الأيتام ، لأن وليهم قوى هو يقيم دعواهم عليك » (أم ٢٣:١١) .. « الرب يقلع بيت المتكبرين ويوطد تخم الأرملة » (أم ١٥:٢٥) .. وقول حزقيال النبى : « لا تسىء إلى أرملة ما ولا إلى يتيم . إن أسأت إليه فإنى إن صرخ إلىَّ أسمع صراخه فيحمى غضبى واقتلكم بالسيف ، فتصير نساؤكم أرامل وأولادكم يتامى » (حز ٢٢:٢٢—٢٤) .. « فهو الصانع حق اليتيم والأرملة » (تث ١٠:١٨) .. « كراعٍ يرعى قطيعه . بذراعه يجمع الحملان وفى حضنه يحملها ويقود المرضعات » (إش ٤٠:١١) .. قالت صهيون : « قد تركنى الرب . سيدى نسينى . هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها . حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك » (إش ٤٩:١٤،١٥) .

ألا تجدين فى كل هذه المواعيد الإلهية تعزيات وافرة على ترملك !؟ وإن كنت فقدت زوجك وأصبح أولادك أيتاماً بفقدان أبيهم الجسدى ، فلهم الآب السماوى أباً وقاضياً ، وهو الذى يعتنى بالجميع . فضعى اتكالك عليه تجدين فيه كل شيء . قال إسرائيل ليوسف عند موته : « ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم » (تك ٤٨:٢١) . وقال يوسف لإخوته : « أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض » (تك ٥٠:٢٤) .

فليكن كلام الله تعزيتك ، والإيمان قوتك ، والرجاء سندك . لقد اتحدتِ مع زوجك على الأرض بالمحبة والإخلاص ، ولا يزال رباط المحبة بينكما وثيقاً إلى الأبد . انظرى بعين الإيمان إلى الوطن الأبدى الذى ذهب إليه زوجك . وهناك ستلتقين به بعد هذه الحياة . وتعرفينه وتتيقنين أنه لم يمت بل إنه حى ، وقد سبقك إلى المجد فى النعيم الخالد .

وله المجد دائماً أبدياً آمين .

العظة الخامسة عشر

مـــوت الـــوالـــديـــن

« أبى وأمى تركانى والرب يضمنى »
(مز ٢٧:١٠)

إن الله هو مصدر الوجود وموجد كل موجود . وقد دبّر بأن يكون الوالدون علة ثانية لوجودنا فى هذا العالم . ولا يخفى أن الولد صورة أبيه ورسم جوهره . ومَن يستطيع أن ينسى محبة والديه وما كابداه من الأتعاب لأجله ؟ ومن يثق بمحبة فى الأرض أكثر من محبتهما وإخلاصهما ؟ فكيف لا يتمزق القلب أسى وحزناً لفراق أحدهما وخسارة تلك المحبة الطاهرة والعواطف التى لا يوجد اسمى منها ؟

متى ظهرت علامات الشيخوخة والهرم على الوالدين ووهنت قواهما ، خفقت قلوب الأولاد الصالحين خوفاً عليهما وتمنوا طول أيامهما . واشتهوا لو أمكن أن تعبر عنهما كأس الموت . ولكن الموت لا يرحم شيخاً ولا يشفق على شاب ، وكلنا رهن المنون . فمتى امتدت يد الموت واختطفت أحدهما فتعزيتنا أنه قام بما عليه من واجب فى هذه الحياة ، وتعبٍ فى الجهاد طيلة أيام غربته على الأرض ، وأصبح مشتاقاً إلى راحته الأبدية والانضمام إلى صفوف القديسين الذين يرحبون بقدومه ، فينتظر الإنطلاق من الدنيا وهو يبارك الله ويقول مع سمعان الشيخ : « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام لأن عينىَّ قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢:٢٩،٣٠) ، ولسان حاله يقول لأولاده ما قاله داود لابنه سليمان : « أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها ، فتشدد وكن رجلاً . احفظ شعائر الرب إلهك ، إذ تسير فى طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجهت » (١مل ٢:٢،٣) . وحينئذ يتم عليه ما قاله الرب لإبراهيم : « أما أنت فتمضى إلى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة » (١٥:١٥) . وقد أسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة ، شيخاً وشبعانَ أياماً وانضم إلى قومه (تك ٢٥:٨) .

أما إذا كان ذلك الوالد قد فارق الحياة وهو لم يبلغ سن الشيخوخة ، فعزاؤنا فى التسليم لقضاء الله وأحكامه . وما هى الحياة فى هذه الدنيا سوى تعب وجهاد ؟ ولا فرق بين من يعيش فيها كثيراً أو قليلا . لأن العبرة ليست بطول الحياة بل بما يعمله الإنسان فيها من الواجبات . وقد قضى الراحل الغاية من وجوده . وعلينا فى هذه الحالة أن نبارك الله الذى خلصه من أتعاب الدنيا ونقله إلى دار الراحة والسعادة . ولنا فى كلام الله وما نرجوه فى الحياة الأخرى خير معزٍ لنا فى مثل هذه الأوقات . وطالما نعلم بأن المنتقل لم يُفقد ، بل جسده هو الذى مات ، وأما روحه فقد صعدت إلى الله ورقد جسده فى قبره على رجاء القيامة ، فإننا نتعزى ونرجو لقاءه فى القيامة مع صفوف الأبرار ومواكب القديسين .

وإذا كنا فى شدة الحاجة إلى ذلك المنتقل وإلى محبته وعنايته ، فعلينا أن نرفع نظرنا إلى أبينا السماوى فنجد فيه كل ما نحتاجه من المحبة والعناية ، ونقول مع داود : « أبى وأمى قد تركانى والرب يضمنى » . فطوبى لمن يتكل على عناية الله ويضع كل رجائه فيه . فإنه يعيش تحت ظل عنايته آمناً مطمئناً .

كم من والدين ماتوا وتركوا أطفالاً صغاراً ، تمتلىء قلوبنا حزناً عندما تقع العين عليهم ، مفكرين فيمن يعتنى بهم ويعولهم بعد والديهم . ولكن لو رفعنا قلوبنا إلى الله وعلمنا أن الله أقام نفسه أباً ومحامياً وقاضياً وعوناً للأيتام ، وأنه يعتنى بهم عناية خاصة ، باركنا الله على حنوه ورحمته ، وما تطرق إلى قلوبنا أىّ فكر يضاد الإيمان . ولكن بعض ضعفاء الإيمان يقولون إن ذلك الوالد كان يسعى ويهتم بخير أولاده . فمن يعولهم من بعده ؟ وتملأ هذه الأفكار قلوبهم . ولكن الإيمان يهمس فى آذانهم قائلاً : « انظروا إلى طيور السماء . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ؟. تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل . ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنتم ياقليلى الإيمان » (مت ٦:٢٦ــ٣٠) . فالله الذى يعتنى بالعصافير والغربان ويعول فراخها ويكسو عشب الحقل بذلك الجمال ، لا يترك صغار أولاده يحتاجون . وإن كان الوالد يعتنى بخير أولاده الزمنى ، فالآب السماوى يلاحظ حياتهم ووجودهم وأرواحهم .

فيا أيها الأولاد ، يامن فارقهم والدوهم ، دعوا الرب يضمكم إليه واقتربوا منه يقترب إليكم ، وهو يدعوكم قائلاً : « تعالوا إليَّ وأنا أريحكم » التصقوا به واتحدوا معه فتشعرون بمحبة أسمى من محبة والديكم لكم « لأنه كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه » (مز ١٠٣:١٣) . قال المرنم : « أيضاً كنتُ فتى وقد شخت ، ولم أرَ صديقاً تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزاً . اليوم كله يترأف ويقرض ونسله للبركة » (مز ٣٧:٢٥،٢٦) . « لا تخف لأنى معك . لا تتلفت لأنى إلهك . قد أيدتك وأعنتك ــ وعضدتك بيمين برى ... لأنى أنا الرب إلهك الممسك بيمينك القائل لك لا تخف أنا أعينك » (إش ٤١:١٠،١٣) قال الرب : « بالبكاء يأتون وبالتضرعات أقودهم . أسيرهم إلى أنهار ماء فى طريق مستقيمة لا يعثرون فيها . لأنى صرت لإسرائيل أباً وافرايم هو بكرى » (إر ٣١:٩) . « وأكون لكم أباً وأنتم تكونون لى بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شىء » (٢كو ٦:١٨) « فاسكنوا فى مساكن الله العلى واستريحوا فى ظل القدير وقولوا له الآن يارب أنت أبونا . نحن الطين وأنت جابلنا . وكلنا عمل يديك » (إش ٦٤:٨) « فإنك أنت أبونا وإن لم يعرفنا إبراهيم وإن لم يدرنا إسرائيل . أنت يارب أبونا ولينا منذ الأبد اسمك » (إش ٦٣:١٦) .

ولك المجد الدائم آمين .

العظة السادسة عشر

الحيـــاة والمـــوت

يقول ابن سيراخ : « الحياة والموت أمام الإنسان فالذى أعجبه يُعطى له » (سى ١٥:١٨)

قال بعض الفلاسفة : إن الإنسان مادة صرفة ، يبدأ نطفة فعلقة فتتكون جنيناً فيولد ثم يأخذ فى النمو حتى يأتى عليه يوم ينتهى إلى قبر ويحتجب فى ظلام الأبدية ويتحلل إلى المادة ، أى التراب ، الذى جبل منه وإليه يعود ، فلا روح تبقى ، وليس لها خلود !

قال قوم : العالم قديم أزلى ليس له بداية ، وليس له فناء .

وقال الفلاسفة الروحانيون : إنما العالم حادث زائل ، وما الموت إلا طريق يوصل الروح إلى عالم البقاء .

السيد المسيح الذى ننتمى إليه ، من نحو عشرين قرناً هزأ بأقوال الفلاسفة الجدليين وأبطل حججهم التى مازال خلفاؤهم يتمسكون بها ويحومون حولها .

أقام السيد المسيح أعظم برهان على فساد تلك النظريات الإلحادية بأمثلة ثلاثة محسوسة شاهدها الألوف من الناس ..

أمثلة ثلاثة أقرها الجمع الغفير من سائر الأمم التى كانت فى فلسطين ..

أمثلة ثلاثة كلها واحدة فى نتائجها ، واحدة فى مظاهرها ، مختلفة فى ظروفها ، ومتعددة فى حوادثها ، ومتباينة فى أماكنها .

المثل الأول : كان ليايرس رئيس مجمع اليهود ابنة وحيدة فى الثانية عشرة من عمرها ، ماتت ، فذهب المسيح إلى بيتها وأمسك بيدها وناداها « قومى ياصبية .. فردُت روحها إليها وقامت فى الحال » (لو ٨ :٤١ـــ٥٦) .

المثل الثانى : بينما كان السيد المسيح ذاهباً إلى مدينة نايين ، ويتبعه كثيرون من التلاميذ والجموع ، رأى على باب المدينة ميتاً محمولاً ، وكان ابناً وحيداً لأرملة

مسكينة ، فتحنن الرب عليها وتقدم من النعش ولمسه وقال : « أيها الشاب لك أقول قم . فجلس الميت وابتدأ يتكلم ، فدفعه إلى أمه » (لو ٧ : ١١ـــ١٦) .

المثل الثالث : مات لعازر ودفن فى القبر ومضى عليه أربعة أيام ، فأمر المسيح بفتح القبر وصرخ بصوت عظيم : « لعازر هلمَّ خارجاً . فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل » (يو ١١ : ١ـــ٤٤) .

لكل مملكة حاكم يتولى أمرها . فادعوه كما شئتم ـــ امبراطوراً أو ملكا أو سلطاناً أو رئيس جمهورية ـــ غير أن هذا الحاكم لا تتعدى سلطته حدود مملكته .

ولكن يسود على جميع هذا العالم سلطان واحد قوى يتحكم فى كل الملوك والسلاطين والأمم والشعوب ، لا تقف فى وجهة أية قوة عالمية ، ولا تقاومه أى سلطة بشرية ، ترتعد له الفرائض وتفزع منه القلوب لأنه بطل صنديد وجبار شديد وقاسى عنيد ، لا يهاب أحداً ولا يشفق على أحد ، لا يعرف المحاباة ولا يراعى وجاهة عظيم أو كرامة غنى . الكل عنده سواء : الأمير كالصعلوك ، الغنى كالفقير ، الشيخ كالشاب ، الغادة الحسناء كالعجوز الشمطاء .. لا توقفه كثرة الأموال ولا تردعه حكمة الحكماء ولا مهارة الأطباء .

هذا السلطان نراه كل يوم ونشاهده فى كل وقت ، يمر أمامنا فى كل لحظة ، هو ألا وهو الموت !

أهذا مصير الإنسان وإليه تنتهى آماله ؟ أهكذا تكون خاتمة وجوده فى الحياة وغرضه منها ؟

كلا أيها المسيحيون ؛ فالمسيح بالأمثلة الثلاثة التى تقدم ذكرها . أظهر أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وأن فى الجسد روحاً تنفصل عنه ، وأن الروح ستعود فتلبس الجسد ثانية لأنها باقية خالدة . وبذلك أبطل مزاعم الفلاسفة الماديين الطبيعيين !

وهذا ما يدعونا إلى التفكير قليلاً فى ذواتنا .

تعالوا بنا نتتبع المسيح ونقف أمام قبر لعازر الذى مات ومضى عليه أربعة أيام فى القبر .

تعالوا وانظروا تفكك المادة الجسدية وتجدد الذات الجوهرية .

تعالوا وانظروا فوز الحياة على قوة الموت واندحار الموت أمام واهب الحياة !

أمام قبر لعازر نتعلم أمرين جليلين

الأول ــ إن المسيح أبطل الموت .

والثانى ــ ان بالإيمان بالمسيح ننال الحياة والخلود .

الأول ــ إن المسيح أبطل الموت :

الموت من الأمور التى يكره الإنسان سماعها ، ويشمئز من النظر إليها ، كأن الإنسان يحسب أن كل نفس ذائقة الموت إلا نفسه . فلماذا نكره سماع خبر الموت ؟ ولأى سبب لا نعتاد التفكير به والنظر إلى وجهه ؟

ذلك لأن الموت إذا هجم يبطل كل حكمتنا ويعطل أفضل تدابيرنا ويوقف أعظم أشغالنا ، ويخطف أعز أحبائنا من وسطنا ، ويبعدهم عنا ويودعهم التراب واللحد .

دخل الموت إلى العالم بغواية إبليس ، فتغلب على الإنسان وأخضعه لسلطانه . ولكن هوذا يسوع ، هوذا الإله المتأنس ، جاء إلى البشرية المتخبطة فى دياجير الظلام ، المكتنفة بالمصائب والآلام ، المحاطة بالبلايا والرزايا والعلل والعاهات والأوصاب . جاء فرسم لنا الطريق الذى نسير فيه على هدى ورشاد ، وأنار العيون العمياء بفتحها والقلوب المظلمة بتوجيه أشعة الإيمان إليها ..

رفع ذلك الشقاء فشفى العلل والأمراض على اختلاف أنواعها ، ثم مد ذراعيه القويتين نحو الموت فقهره وانتشل من بين براثنه غنيمته .. دحر الموت ورد إلى الأجسام أرواحها فأحياها ، لأنه هو الطريق والحق والحياة .

فيجب علينا إزاء ذلك أن نقول مع هوشع النبى : « أين أوباؤك ياموت ، أين شوكتكِ ياهاوية » (هو ١٣:١٤) .

إننا لم نعد نخشى الموت لأن لنا من هو قادر أن ينجينا من شوكته ومخاوف سطوته .

والثانى ــ إن بالإيمان بالمسيح ننال الحياة والخلود :

إذا كان الموتى يقومون فهذا دليل على أن الموت ليس نهاية كل حى . بل أن مقصد البشرية الأخير وغايتها القصوى هى الانتقال إلى حياة أخرى أبدية حيث ننعم بالسعادة ونتلذذ بالراحة الدائمة .

ولكن ، ما هى الواسطة التى رسمها المسيح لنا ؟

هى الإيمان به والعمل حسب شريعته .

إذا كنا نؤمن بالمسيح ونعتمد على محبته ، تلك المحبة الفائقة التى جعلته يقهر الموت ويتغلب على سطوته بموته الإلهى ، لا نعود نرهب الموت ولا نخشاه ولا نعبأ بمصائب الدهر وبلاياه ، ولا نأبه لغدر الزمان ورزاياه ، لأن المسيح الذى نؤمن به يكون سنداً وعوناً لنا فى وقت الضيق والشدة ، أو كما قال داود النبى فى المزمور (١١٢:٧) : « لا يخشى من خبر سوء من كان قلبه ثابت متكلاً على الرب » .

يكفى أن يكون لنا إيمان بالمسيح فننال كل شيء . وقد أكد لنا ذلك بقوله على لسان يوحنا الإنجيلى (١١:٢٥) « من آمن بى ولو مات فسيحيا . وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد » .

ذلك أيها المؤمنين حق ، لأنه صادر من المسيح الحق ، والذى يأتى من الحق لا ريب فيه ، كما أن الذى يبنى على الباطل باطل هو .

آمنوا بالمسيح فتحيوا ، لأنه الحياة والخلود .

لا تقولوا إنكم مسيحيون بالشفاة ، وقلوبكم بعيدة عن الرب . فليس الإيمان بالأقوال ، بل بأعمالكم المنطبقة على تعاليم المسيح تكونون مسيحيين حقاً .

إذا كنتم تعبدون الله بخوف ، ولا تغشون قريبكم ، ولا تشهدون زوراً ، ولا تأخذون الرشوة على الأبرياء .. وإذا كنتم لا تغتابون أحداً .. إلخ وتحبون بعضكم بعضاً حسب وصايا المسيح وتعاليمه ، عندئذ تكونون حقيقة مسيحيين ، وعندئذ لا تخشون الموت ولا يكون له سلطان على نفوسكم .

عندئذ لا تكرهون سماع ذكر الموت بل تصبحون مستعدين لملاقاته بإطمئنان ، لأن المسيح معكم . ومن ثم تسمعون صدى الوحى يقول على لسان إشعياء النبى (٢٦:١٩) : « تحيا أمواتك ، تقوم الجثث ، استيقظوا : ترنموا ياسكان التراب » .

نسأل الله أن يجعل فى قلوبنا إيماناً وطيداً بالمسيح وأن نعمل بوصاياه وبأحكامه ، فننجو من غائلة الموت وننال الحياة الأبدية . آمين .

العظة السابعة عشر
الذاكرة فى الآخرة

« فقال إبراهيم يابنى اذكر »
(لو ١٦: ٢٥)

الذاكرة قوة من قوى النفس ، وتقوم بدور أساسى وخطير فى حياة الإنسان . فبدون الذاكرة لا يستطيع الإنسان أن يتعلم الحروف الأبجدية ولا أن يحفظ جدول الضرب ، بل ولا يذكر اسمه ولا عمله ولا عنوان منزله ، ولا يعرف أقرب الناس إليه ، ويهيم على وجهه كالحيوان أو كالمجنون . فالذين يتعرضون لحوادث وصدمات تؤثر على المخ وتفقدهم الذاكرة يكونون فى حالة مؤلمة وفى شبه غيبوبة . ولذلك فالذاكرة نعمة عظيمة من نعم الله على الإنسان . وآية موضوعنا (يابنى اذكر) التى قيلت بعد الموت ، تفتح لنا باب التأمل عن موقف الذاكرة فى الآخرة ، وهل تستمر فى عملها بعد الموت ؟

نحصر كلامنا فى نقطتين :

أولاً ــ الذاكرة كقوة خالدة :

الذاكرة قوة خالدة لا تموت بموت الجسد بل ، بالعكس ، باعتبارها من قوى النفس ــ والنفس خالدة ــ تظل حية معها ، ملازمة لها ، وتزداد قوة واتساعاً فى الآخرة عنها فى الحياة الحاضرة . [راجع قصة إخوة يوسف عندما تذكروا جريمتهم التى انقضى عليها أكثر من عشرين سنة فقالوا : « حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذى رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع » (تك ٤٢: ٢١) وأيضاً تذكرت أرملة صرفة إثمها القديم عند موت ابنها (١مل ١٧: ١٧، ١٨)] .

١ ــ باعتبار سعتها :

أما الذاكرة فى الآخرة فمتسعة جداً ، تشمل جميع أحداث الحياة الحاضرة من أولها إلى آخرها .. كما تشمل جميع نعم الله وإحساناته وخيراته التى استوفاها الإنسان فى

حياته و لم يستفد منها لخلاص نفسه وتمجيد الله .. وتشمل معاملات الله معه وافتقاده والعظات التى سمعها ومحاولات إنقاذه من المصير المظلم واستخدام حصار الضيقات والأمراض والوفيات والحوادث والخسائر والظروف المختلفة ..

وتشمل الذاكرة أيضاً خطايا الإنسان التى كرمل البحر فى الكثرة ، من الخطايا السرية إلى الجهرية ، وخطايا القلب والفكر والعمل واللسان ، وما اسكت الضمير لأجله . وهى تشمل فى سعتها وبطول الأبدية كل شيء ــ ولا تنسى شيئاً مطلقا .

٢ ــ باعتبار سرعتها :

أما الذاكرة فى سرعتها فعجيبة ، حيث تستطيع أن تستعرض حوادث حياة الإنسان الحاضرة بسرعة البرق الخاطف ــ من أولها إلى آخرها بجملتها ــ وهذا أمر مخيف يزيد من ندم الخاطىء الهالك ومن عذابه اللانهائى ويأسه المرير العديم الشفاء . ولا توجد قوة تستطيع أن توقف الذاكرة فى الآخرة ، إذ ليس هناك نوم ولا مرض ولا موت ولا دواء . ومع أن فقدان الذاكرة هنا كارثة إلا أنه هناك للأشرار نعمة . وما أبعد النعم عن الأشرار فى جهنم ! فبقدر ما نسوا الله هنا بقدر ما سيذكرونه هناك · حيث لا تنفع الذكرى ، ويتم قول المزمور : « افهموا هذا ياأيها الناسون الله لئلا أفترسكم ولا منقذ » (مز ٥٠:٢٢) .

ثانياً ــ الذاكرة والعذابات المؤبدة : « يابنى اذكر !! » :

هل هناك ما يسمى بالعذابات المؤبدة ؟ هل هناك جهنم حقيقة ؟ نعم جهنم موجودة بدون شك ، وبها عذابات مؤبدة حتما ، كما يعلن الكتاب المقدس المنزه عن الكذب أو المبالغة (مت ٢٥:٤١،٤٦؛ رؤ ١٤:١١؛ ٢١:٨) .

فلو لم يكن جحيم ولا جهنم لما كان المسيح ينزل من السماء ويصلب ويتحمل العذاب لأجل خلاصنا . اذكروا الجحيم وما قاله ذلك الرجل الغنى « لأنى معذب فى هذا اللهيب » (لو ١٦:٢٤) ، ويقول له إبراهيم : « والآن هو يتعزى وأنت تتعذب » إذن ، فهنالك جحيم وجهنم ، وهناك عذابات مؤبدة حقيقية قال عنها إشعياء النبى : « من منا يسكن فى نار آكلة . من منا يسكن فى وقائد أبدية » (إش ٣٣:١٤) . اسمعوا قول السيد المسيح فى تحذيره من خطورة العثرات : « إن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم .

وإن أعثرتك عينك فاقلعها خير لك أن تدخل ملكوت الله أعور من أن تكون لك عينان وتطرح فى جهنم النار ، حيث دودهم لا يموت والنار لاتطفأ » (مر ٩:٤٣ـ٤٩) .

إذن ، فجهنم موجودة مهما أنكرها الجهلاء الذين يخدرون ضمائرهم ، ومهما استهزأ الملحدون والمتفلسفون والسبتيون والذين يسمون أنفسهم « شهود يهوه » . ومهما حاولوا محوها من ذاكرتهم هنا فسوف يصدمون بالحقيقة الرهيبة هناك عندما يجدون أنفسهم فى أعماقها فى لحظة خاطفة ، ويجدون أن ذاكرتهم تنقل لهم تأنيب الضمير على غباوتهم وعنادهم واستهتارهم ، وتتحول هذه الذاكرة وحدها إلى جهنم أخرى مستقلة ، فتصير آخرتهم جهنم . وما أصعب التعبير الذى استعمله الرب يسوع المسيح فى توبيخ الكتبة والفريسيين عندما قال لهم : ويل لكم .. لأنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا دخيلاً واحداً تصنعون منه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً » (مت ١٥:٢٣) .

ولكن قد يسأل أحد : ما علاقة الذاكرة بالعذابات المؤبدة ؟

إن للذاكرة فى الآخرة علاقة كبيرة بالعذابات المؤبدة لسببين .

أولهما : لملازمتها للإنسان الشرير .

والثانى : لترديدها صوت الضمير .

١ ـــ ملازمة الذاكرة للإنسان الشرير :

يقول ميلتون ، الشاعر الشهير ـــ مصوراً حالته النفسية الشقية يوماً (حيثما اتجهت فهناك جهنم) . وهكذا يقول الخاطىء (حيثما اتجه فهناك جهنم) .. أن الذاكرة باستمرار ستسجل وتفكر وتصرخ معلنة كل فعل أثيم شرير مخجل أرتكبته فى حياتك على الأرض . وستلازم الإنسان الهالك ذكرى خطاياه ، بل يعذب بالحياة كأنه يعاود تمثيل ما ارتكبه من الشرور والخطايا هناك ، لأن « من هو نجس فليتنجس بعد » (رؤ ١١:٢٢) .

كان أحد الملوك يربط القاتل بالقتيل ـــ يده على يده ورجله على رجله وعينيه على عينيه وفمه على فمه ـــ ويتركه هكذا حتى يموت القاتل من الرعب والندم والعطش والجوع ويختنق من رائحة العفونة التى تنبعث من تحلل جثة القتيل ، بالإضافة لقتل

التعذيب النفسى الرهيب من ملازمة جريمته البشعة وعدم إمكان الفكاك منها . وهكذا ستلازم الذاكرة الإنسان الشرير فى جهنم لتزيد عذابه .

٢ — ترديد الذاكرة لصوت الضمير :

الضمير هنا يضعف ويُخدَّر ويمرض ، أو يكاد يموت ، ولكنه هناك . يستيقظ ويستعيد قوته وشبابه ونشاطه فى التأنيب والتوبيخ . وإليكم صورتين من العهدين القديم والجديد : قايين ويهوذا . الأول يصرخ فيه الضمير : ياقاتل أخيك ألا تذكر صرخاته وهو يسترحمك ويتوسل إليك أن تكف عن طعناتك الغادرة ألا تذكر نظرة عينه المتألمة غير المصدقة ؟ يقول الضمير : أنا أدينك وأحكم عليك ياقايين ، ياقاتل أخيك . والصورة الثانية من العهد الجديد ليهوذا الأسخريوطى الذى باع سيده الذاكرة تلازمه وتقول له : أيها الخائن لسيدك ، هل نفعك المال ؟ والضمير يقول له : وأنا أحكم على جريمتك البشعة وأدينك بالعذاب الذى لا ينتهى . أن انتحارك بشنق نفسك أيها الساذج ، لا يريحك ولا يخفف عذابك بل يزيده ويعجل بإرسالك إلى جهنم ، حيث يصعد دخان عذابك إلى أبد الآبدين (رؤ ١٤:١١) . ولذلك ، وعلى مدى سنوات — ليلاً ونهاراً — كان الرسول ينذر كل واحد يقابله بدموع ، خوفاً عليه من هذا المصير المرعب (أع ٢٠:٣١) .

بقيت لى فى الختام ثلاث كلمات وهى :

١ — (**اذكر**) .. هنا : لكى تنجو من عذاب ما قد تذكره فى الآخرة هناك أيها الشاب « اذكر خالقك فى أيام شبابك » (جا ١٢:١) . « اذكر من أين سقطت وتب وارجع لمحبتك الأولى » (رؤ ٢:٥) .

٢ — (**قرر**) .. كما يقول القديس يوحنا ذهبى الفم : قرر أن تبكى على خطاياك هنا مرة واحدة بدلاً من أن تبكى عليها إلى الأبد هناك ، واحدة فواحدة .

٣ — (**أطهر**) .. إن كل ما كتب فى الذاكرة لا يمكن أن يمسح ويمحى كشريط التسجيل — وتطهر منه بدم المسيح فى سر التوبة والاعتراف والتناول . وسجل فوقه أعمالاً صالحة وأثماراً تليق بالتوبة . وعندئذ تكون لك الذاكرة فى الآخرة سارة وطاهرة ، ويقول لك الله : لا أعود أذكر خطاياك وتعدياتك فيما بعد .. طرحتها فى بحر النسيان .

له المجد دائماً .. آمين .

العظة الثامنة عشر

الأبــدية وأيــن تقضيــها

« خلق الرب الإنسان من الأرض وإليها أعاده . جعل لهم وقتاً وأياماً معدودة ، وآتاهم سلطاناً على كل ما فيها ، وألبسهم قوة بحسب طبيعتهم ، وصنعهم على صورته »

(سى ١٧ : ١ـــ٣)

أيها المستمع العزيز ، هل تعلم أننا جميعاً مسافرون ؟ فالغنى الذى يطوى الأرض بمركبته ، والشحاذ الذى يحجل متوكئاً على عكازه ، والعجوز الذى يتطلع إلى قبره ، والطفل الشغوف بلعبه ، الكل مسافرون .

وكل سنة تمضى وكل شمس تغرب وكل دقة فى الساعة إنما تقصر من أيامك على الأرض وتحملك بكل سرعة وسكون ويقين إلى الأبدية وإلى مقابلة الله . لابد من مجىء السنة والشهر واليوم والساعة واللحظة التى تختم فيها حياتك على الأرض ويبدأ إما نشيدك فى السماء أو عويلك فى الجحيم . ليس من ساعة مستقبلة ترجع بك إلى الأرض . فهناك تكون إلى الأبد ، كل الأبدية . اليوم تشتغل يداك وتبصر عيناك ويفكر عقلك ، وغداً يصير كل ما فيك فى سكون يبقى الذراع مكتوفا والعين مغمضة بينما أنت تمضى ـــ تمضى إلى الأبدية . لقد انشغل آخرون قبلك ، وفكروا مثلك ، ثم مضوا إلى الأبدية .

أيها المستمع الكريم : سيأتى دورك سريعاً لتدخل الأبدية فأين تقضيها ؟ وماذا تكون العاقبة ؟ هذا هو السؤال المهم الذى نضعه أمامك لتُجيب عليه الآن بأمانة واخلاص ، والذى يزداد آلاف المرات فى خطورته وأهميته عن أى سؤال آخر ، لأنه يتعلق بالأبدية والمصير الأبدى . ربما تهدىء نفسك وتُسكن ضميرك بالقول إن الأبدية اسم لا وجود له ، فلا نعيم ولا جحيم . لكن الله وكلمته يقرران عكس ذلك تماماً . فبينما أنت تسمع (ربما بغير اكتراث) فإنك تدنو من السماء أو جهنم ، وعدم اهتمامك وعدم تصديقك لا يغير من الحقيقة شيئاً . وكل ما يجب أن تعلمه يقيناً أن نهايتك ربما تكون قد قربت .

أيها المسيحى ، دع السماء المستقبلة والجحيم يرتسمان أمامك بكل حقائقهما . أحدهما سيكون مسكناً أبدياً لك . يقول ابن سيراخ : « الحياة والموت أمام الإنسان فالذى أعجبه يعطى له » (سى ١٥:١٨) . اليوم هو الوقت المناسب لتختار أحدهما . فربما لا يُدركك الغد . إلى أين أنت ذاهب ؟ ليس من الممكن أن تنتقل من جماعة الأشرار الهالكين إلى أناشيد المفديين . أبداً ، هذا لن يكون .

قد تكون مؤدباً وشجاعاً ورزيناً .. ربما تكون محبوبا وشريفاً . ربما تكون غنياً ذا أموالٍ كثيرة ، وموضوع شغف الآخرين وملاطفتهم وتملقهم .. أو ربما تكون وقوراً بشوشاً وحكيماً ومحنكاً ، وأيضاً فطناً ومحسناً ومهذباً . ولكن بالرغم من كل هذه الصفات والامتيازات ، إذا لم تكن مؤمناً بالرب يسوع فإنك لا محالة هالك ! ولابد أن تنتظرك أهوال الجحيم الأبدى الذى أنت أقرب اليوم إلى ناره التى لا تطفأ أكثر مما كنت بالأمس . لماذا تؤجل التوبة وتهمل فرصة الخلاص ؟ لماذا تموت فى شناعة خطاياك ؟ ولماذا تقابل الله بقلب نجس ونفس دنسة ؟ هل تقبل أن تطرح فى نار أبدية ؟ هل تريد أن يكون نصيبك الهلاك الأبدى ؟ اسأل نفسك : الله لا يريد ذلك . إنه لا يرضى مطلقاً بهلاكك . إنه يُشير لك بيد الحب والحنو إلى الصليب ، إلى ذاك الذى سمر عليه ، يسوع الناصرى . اسمعه متأوها . انظره داميا مائتا . آه ! كل ذلك لأجلك ؟ نعم ، لأجلك . فهل تقبله مخلّصاً لك ؟ هل ترحب بموته نيابة عنك ؟ لأجلك يوجد خلاص مجانى اليوم والخلاص معناه حياة أبدية وغفران وتبرير وتقديس وسلام ، ومصالحة ونيل التبنى ضمن عائلة الله .

أيها المسيحى ، ليتك تغتنم الفرصة قبل غروب يوم النعمة ، وتختار لنفسك هذا النصيب الصالح . إن نفسك خالدة ، ولابد لك أن تقيم فى مكانٍ ما . برفضك تختم على هلاكك أبدياً . ولابد أنك ستواجه هذه الحقيقة المخيفة إن عاجلاً أو آجلاً . لا يمكنك التخلص منها ولا يمكنك إبعادها عنك . وهذه الحقيقة الخطيرة هى الدافع الوحيد لنا . ولذا نطلب إليك من أجل نفسك الغالية أن تسمع بكل تأمل واعتبار لأنها تشمل كل ما يتعلق بالنفس الخالدة من بركة أو لعنة ، سواء أكان فى الزمان الحاضر أو فى الأبدية . ربما تزدرى بها وتهملها وتمضى فى طريق التهاون والإهمال ، لكن هذا لا يغير ما بها من حقائق . وكلماتها التى يمكن أن تنساها الآن ستظهر فى الدينونة بأحرف من نار محتجة عليك وشاهدة بأنك ازدريت بنعمة الله ودست دم المسيح ، هذا الدم الثمين الذى سفك لأجل فدائك وتطهيرك .

ليتك تفطن وتتأمل آخرتك ، عالماً بأن : « دم المسيح ، كافٍ لتطهيرك من كل خطية إن تبت » (يو ١:٧) : « وأن الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية . والذى لا يؤمن بالابن لن يرى حياة أبدية بل يمكث عليه غضب الله » (يو ٣:٣٦) . وأنه « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية » (يو ٣:١٦) .

سؤال خطير جديرٌ بالأهمية أطرحه على كل سامع للتأمل فيه ليضع تقريراً حقيقياً عن حالته . إن معظم الناس فى هذه الأيام وضعوا أمام أعينهم الأمور المادية الفانية ونسوا الأبدية الدائمة .. فكروا فى الهدم والبناء ، القلع والغرس ، الأكل واللباس ، التجمل والزخرفة ــ ذلك أن عصرنا الحالى كما يقولون « عصر الموضة » .

حقاً لقد تمت فيهم نبوة إرميا النبى القائلة : « لأنهم من الصغير إلى الكبير مولع بالربح ، من النبى إلى الكاهن ، كل واحد يعمل بالكذب » (إر ٨:١٠) . بل اسمع ما يقوله إرميا النبى : « الأنبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تَحْكُمُ على أيديهم وشعبى هكذا أحبّ . وماذا تعملون فى آخرتها » (إر ٥:٣١) . آه لقد انشغل الناس بالسياسة ، بالاختراعات ، بالحروب ، بمحبة العالم وشهواته . فأين تقضى أبديتك ؟؟

أين تقضى أبديتك ، أيها الخادم ، يامنَ أنت مسئول عن النفوس الثمينة ، يامن دعيت لهذه الخدمة المجيدة ، يامن أنت سفير عن المسيح ؟ أين تقضى أبديتك ، وقد أهملت البحث عن النفوس البعيدة ، والسعى وراء الخروف الضال ، وفكرت بأن الخدمة وظيفة أو تجارة ، فأكلت السمين ، وتركت الهزيل ، ولم تجبر المكسور ، وفوق هذا كله وقفت حجر عثرة فى طريق النفوس الراجعة إلى المسيح ؟ واآسفاه ! واحسرتاه عليك ياخادم الإنجيل ، بل ياخادم المذبح ، إذ بعد قليل ستقف عُرياناً أمام الديان العادل المهوب ، المكشوف له كل أعمالك ؟ حقاً « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » . فأين تقضى أبديتك ؟

أين تقضى أبديتك أيها الأخ العضو فى الكنيسة ، بل المتقدم فيها ، المنظور من الناس ، يامن يجدف على الاسم الحسن بسببك ، يامن تهين الله فى أخذك وعطائك فى بيعك وشرائك وفى كل ما تمتد إليه يدك ؟

أين تقضى أبديتك أيها الشاب ، يامن تصرف وقتك فى الملاهى والمقاهى ، وهنا

وهناك ، ولست تعرف للكنيسة باباً ؟ أخبرنى أين تقضى أبديتك أيها الشاب الغائص فى لجج المدنية الفاسدة ، بل الغارق فى يم الموضة الباطلة .

أين تقضى أبديتك أيتها السيدة ، يامن تضعين الأصباغ على وجهك وتلمعين أظافرك ، يامن تتركين معظم جسمك عاريا ؟ ياللعار !. ياللفضيحة !

أين تقضين أبديتك أيتها الآنسة ، يامن تقصين شعرك وتقصرين ملابسك ، وإن سألك أحد لماذا هذا ؟ تقولين الموضة .. المدنية .

أيها الناس ، تأملوا فى الأبدية ! فكروا فى النهاية ! إلى أين أنتم ذاهبون ؟ إلى السماء ! أم إلى الشقاء ! امتحنوا أنفسكم أمام نور كلمة الله الصادقة الأمينة ، أمام مرآة يسوع التى تظهر الإنسان على حقيقته كما هو .

أيها الرجل ، أيتها السيدة ، أيها الشاب ، أيتها الشابة . إنى أناشدكم جميعاً باسم الفادى يسوع ، الذى عرف قيمة نفوسكم الثمينة ومات لأجلها ، أن تتركوا خلاعتكم وشروركم ، وأن تهجروا هذه المدنية الكاذبة ، وأن ترجعوا إلى يسوع قبل فوات الفرصة وقبل أن يغلق الباب .

فهل نستيقظ من غفوتنا ونتنبه لمصيرنا ؟ هل مستقبلنا من صنعنا ، وحصادنا من غرس أيدينا . أما إلقاء التبعات على غيرنا ونسبة ما يصيبنا إلى ظروف وأمور خارجة عن إرادتنا ، فهى خطة لا تجدينا نفعاً ، فضلاً عن أنها لا تخلينا من المسئولية ولا تعفينا من تحمل نتائج تصرفاتنا . أليست البذار الطيبة فى متناول أيدينا ؟ فما بالنا لانغرسها فى كل حقل من حقول نشاطنا ، ونبذرها فى كل مكان تصل إليه جهودنا ؟

قال أحد القديسين : من يركب سفينة ويسافر فى البحر لا يزال سائراً مع كونه لا يتحرك . وأنت على هذا القياس ، ولو ظهر لك أنك واقف فى الدنيا ، فأنت سائر بسرعة إلى الموت .. فإنك محاط بجرذين ، أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهما النهار والليل اللذان يقرضان العمر على الدوام . فلهذا لا يمكننا أن نسر ونتمتع بخيرات حياة مثل هذه الحياة .

فالله فى جعله حياتنا سريعة بهذا المقدار كأنه يقول لنا : استعدوا بالإيمان الحى والعمل الصالح فى كل حين . وأحد الذين استعدوا جيداً ليوم الرحيل كان يصرخ قائلاً : « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تُنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً . ونحن غير

ناظرين إلى الأشياء التى تُرى بل التى لا تُرى . لأن التى تُرى وقتية وأما التى لا تُرى فأيدية » (٢كو ١٨،١٧:٤) .

فيا أيها المسافر إلى الحياة الأبدية ، لا يهمك عدم إجلال الغير لك . وإذا أعياك تعب الطريق فلا تغتم . لأنك لابد واصل إلى النهاية ، إن عاجلاً أو آجلاً . فاختر لنفسك إذن « النصيب الصالح الذى لن ينزع » (لو ٤٢:١٠) . وقل مع القديس أوغسطينوس : إنك يارب خلقتنا لك وسنظل قلقين إلى أن نستريح فيك .

ولربنا المجد والإكرام والسجود من الآن وإلى الأبد آمين .

العظة التاسعة عشر

فى انتقال الصالح

« أيضاً إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى »
(مز ٢٣:٤)

قد دخل مخلصنا القبر ، ولكنه لم يمكث فيه بل جاوزه . كان الناس يرونَ القبر سجناً أبدياً ومدخلاً مظلماً لا خروج منه ، ولكن يسوع جعله مجازاً للمفديين من هذه الدار إلى ملكوت السماء . فالموت والقبر بعد قيامة السيد المسيح غيرهما . وذلك الإنسان الذى يصبر إلى المنتهى ، ثابتاً فى الإيمان والتقوى ، ينال الحياة الأبدية « ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص » (مت ٢٤:١٣) . وقال يوحنا الرسول : « وهذه هى الغلبة التى تغلب العالم .. إيماننا » (يو ٥:٤) . فحياة المؤمن هنا مفعمة بالرجاء والاتكال على الله . فهو به مكتفٍ وعليه يستند حتى إلى الموت يصيح قائلاً : « فدى نفسى من العبور إلى الحفرة فترى حياتى النور » (أى ٣٣:٢٨) ويقول أيضاً : « لأن الله هذا هو إلهنا إلى الدهر والأبد . هو يهدينا حتى إلى الموت » (مز ٤٨:١٤) .

هذا المؤمن يضطجع على فراش الموت منتظراً الساعة التى فيها ينتهى أجله ، مملوءاً تعزية ، لا يخشى موتاً ولا دينونة ، إذ لا سلطان لهما عليه ، كما قال السيد ، له المجد : « من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى إلى الدينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة » (يو ٥:٢٤) وكما قال الحكيم : « فى سبيل البر حياة وفى طريق مسلكه لا موت » (أم ١٢:٢٨) .

معلوم أن الموت هو ألد أعداء البشر ، ويدعوه الرسول بولس « آخر عدو يبطل » . ولكنه هو نفسه يهتف به قائلاً : « أين شوكتك ياموت » (١كو ١٥:٢٦) وذلك لأن الموت عدو لقوم وحبيب لآخرين .. عدو للخاطىء وحبيب للتقى . يقول الحكيم : « مخافة الرب ينبوع حياة للحيدان عن أشراك الموت » (أم ١٤:٢٧) . فما أسعد الذين يموتون فى حال البر والقداسة ! فهؤلاء قد نالوا الطوبى والغبطة ، كقول الكتاب : « وسمعت صوتاً فى السماء قائلاً لى اكتب طوبى للأموات الذين يموتون فى

الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكى يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤:١٣) .

إن المؤمن المشرف على الموت إذا رأى أهله حوله باكين يشجعهم ويحثهم على سلوك الصلاح الذى ينجى من الموت . فإبراهيم وإسحق ويعقوب حين دنت ساعة موتهم وشعروا به لم يرتعبوا ، بل كانوا يستحضرون أولادهم ويباركونهم ويظهرون كأنهم لم يكونوا يتوقعون شيئاً جديداً يحل بهم . ويوسف وهو فى النزع قال لإخوته بثبات : « أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الأرض » (تك ٥٠:٢٤) . وموسى حين أخبره الله أنه سيموت لم يخف بل أوصى إسرائيل بوصية الرب ، ووصف الله بقوله : « إن جميع سبله عدل . إله أمانة لا جور فيه ، صديق وعادل هو » (تث ٣٢:٤) وداود حين أتت منيته أوصى ابنه سليمان بحفظ وصايا الرب وقال له : « أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها » (١مل ٢:٢) وبولس الرسول حين شعر بدنو ارتحاله قال لتيموثيئوس : « فإنى أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر » (٢تى ٤:٦) . وبطرس الرسول يتكلم عن نفسه بلا خوف قائلاً : « عالما أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضاً » (٢بط ١:١٤) .

هناك يضع المؤمن يده فى يد إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وينظر وجه بولس الرسول ، ويقف مع بطرس ، ويجلس فى الحقول المخصبة مع موسى وداود ، ويصلى فى نور شمس النعيم مع يوحنا والمجدلية ، فيا لها من غبطة عظيمة !!

نعم . يشعر المؤمن هنا أنه سيخسر ممتلكاته وكل ثروته ، ولكنه لا يحزن لأنه يكون مشغولاً بالتفكير فيما سيربح فى السماء .. يفكر فى المدينة العظيمة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله .. يفكر فى المساكن الأزلية التى لا يصح أن تقارن بها أعظم قصور ملوك الأرض .. يفكر فى الخيرات السماوية التى تشبع شبعاً أبدياً وتملأه اكتفاء لم يكن يشعر بجزء ضئيل منه لو امتلك كل الأرض .

فما أعظم راحة المؤمن وهو على فراش الموت ! وما أسمى هدوء باله وسكون خاطره وضميره ! لا يقلقه شيء لأن خطاياه قد غفرت له وقلبه قد اشترك فى نعمة الله وصليب المسيح . فهو يشتهى حينئذ أن يُظهر محبته الأكيدة بشدة ليسوع ذلك المخلص الذى كان ذكره فى قلبه مدة حياته .. ذلك المخلص الذى عليه ألقى اتكاله ، وهو الآن رجاؤه ومعتمده الوحيد . فله قد عاش وإليه الآن ينتقل . وتظهر على وجه المؤمن سمات السلام الداخلى والتعزية الإلهية ، وهو يهتف قائلاً : « إن عشنا فللرب نعيش . وإن متنا فللرب

نموت . إن عشنا وإن متنا فللرب نحن » (رؤ ١٤ :٨) . ويصيح أيضاً « جعلت الرب أمامى فى كل حين لأنه عن يمينى فلا أتزعزع ، لذلك فرح قلبى وابتهجت روحى . جسدى أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً . تعرفنى سبيل الحياة . أمامك شبع سرور وفى يمينك نعم إلى الأبد » (مز ١٦ :٨—١١) .

إن التأمل فى الماضى والحاضر والمستقبل ، كل هذا يملأ قلب الصالح فرحاً وسلواناً . فهو ينظر إلى الماضى فيجد أنه قد استراح ، وإلى الحاضر فيرى فيه كل ما يسره . يفرح بقرب تركه شقاء العالم . يفرح بقرب دخوله باب السماء . وما أحلى ذكر المستقبل عنده ! لأنه يرجو أن يجتمع بإلهه الذى أحبه دون أن يراه ، كقول الرسول بطرس : « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١بط ١ :٨) .

فمن يستطيع أن يصف مقدار فرح الإنسان الصالح وقت الموت عندما يعلم أن ساعة جهاده وتجاربه قد انتهت . إن السلام الذى يملأ قلوب المؤمنين حال موتهم يجعل فراشهم وثيرا لينا كريش النعام ، فلا يمكن أن نشاهد فى ولائم الأعياد ولا بين الذين أدركوا ساعة النجاح أُناساً مبتهجين مثل المرضى المؤمنين . إن سلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ قلوبهم وأذهانهم .

وعند حلول ساعة الموت يمتلىء المؤمن فرحاً وهو يقول : « ياأبتاه فى يديك استودع روحى » (لو ٢٣ :٤٦) ، وملاك الرب يتسلم روحه ليحملها إلى الأفراح الأبدية أمام عرش الله والخروف . فما أبهج وما أسعد نهاية ذلك الإنسان الذى استحق أن يرى المسيح وجهاً لوجه كما هو ، ويشترك معه فى المجد والقداسة ، مشابهاً له فى ذلك ، ويشكره لأنه يرفعه من أبواب الموت (مز ٩ :١٢) . فمن يستطيع أن يتصور تلك الحالة السعيدة بل ويتصور أقل جزء من بهجتها !؟

تلك هى نهاية المؤمن الذى جاهد وغلب ، الذى احتمل الضيق والآلام بصبر . غير ناظر إلا إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع (عب ١٢ :٣) . والآن ، قد انضم إلى زمرة الأبرار ليتمتع بحياة سعيدة لا يعقبها موت ولا تعب ، وهو يرنم بترنيمات سماوية بدون إنقطاع ولا ملل ، حتى صار يحق لنا أن نهتف مع القائل : « لتمت نفسى موت الأبرار ولتكن آخرتى كآخرتهم » (عد ٣٢ :١٠) . كيف لا ، والكتاب يصف راحتهم قائلاً : « وسمعت صوتاً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو

سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلهاً لهم ، وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم ، والموت لا يكون فيما بعد ، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت » (رؤ ٢١ :٣، ٤) .

لهذا نسمع آساف النبى يصرخ قائلاً : « برأيك تهدينى وبعد إلى مجد تأخذنى . مَن لى فى السماء ومعك لا أريد شيئاً فى الأرض » (مز ٧٣ :٥٤) . وسمعان الشيخ يقول : « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عينى قد أبصرتا خلاصك » (لو ٢ :٢٩، ٣٠) . وبولس الرسول يقول : « لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ، ذاك أفضل جداً » (فى ١ :٢٣) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم فى رسالة أرسلها من منفاه الذى نفته إليه الملكة أودكسيا « إنى لما خرجت من المدينة لم أعد أفكر فى شىء . إنما أخذت أحدث نفسى هكذا : إن نفتنى الملكة فالأرض بكمالها للرب . وإن أحبت أن تنشرنى فقد نشر إشعياء من قبلى . وإن أرادت أن تلقينى فى البحر فإنى أذكر يونان . وإن شاءت أن ترجمنى فلى أسوة باستفانوس أول الشهداء . وإن آثرت أن تغتصب مالى فعرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك . وكانت آخر كلمة لهذا القديس قبل أن يلفظ النفس الأخير « أشكر الله على كل شىء » .

وقال أحد القديسين « ينبغى أن نسمى يوم موت الأبرار بيوم ولادتهم ، لأن فى هذا اليوم يولدون ولادة جديدة لا يعقبها موت » .

وله المجد دائماً .

العظة العشرون

فى سعادة الأبرار ومجد القديسين

« ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه »

(١كو ٢: ٩)

قال الله لملاك كنيسة سميرنا : « كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة » (رؤ ٢: ١٠) وهذا الوعد هو لكل إنسان . فمن كان أميناً فى محبة المسيح وخدمته وعهوده إلى الموت فسينال منه إكليل الحياة ويحظى بالشركة معه فى الميراث السماوى والأمجاد الأبدية . وعلى ذلك فالجهاد والآلام هى طريق الوصول إلى الأمجاد ، وكذلك احتمال الضيقات والأمانة إلى الموت ، فإنها سبيل التمتع بنيل إكليل الظفر . فالمسيحى الأمين متى فارق هذه الحياة يلاقى ربه باسم الثغر وضاح الجبين ، ويكون كالجندى الباسل الأمين عندما يعود من ساحة الحرب منتصراً لينال جزاء جهاده وأمانته . لقد حصل يوسف على خاتم الشركة والسلطان بعد خروجه من السجن . وبولس الرسول يقول : « جاهدت الجهاد الحسن .. وأخيراً وضع لى إكليل البر » (٢تى ٤: ٧) .

فلا تضجر أيها المؤمن إذا أصابتك البلايا وتراكمت عليك المخاوف والأحزان ، بل اثبت على ما تعلمت وأيقنت لكى تتمجد فى السماء بالأمجاد التى يعجز اللسان عن وصفها .. تلك الأمجاد التى لما عاينها بولس الرسول لم يقدر أن يتكلم عنها ولم يجد فى قواميس اللغة ألفاظاً تساعده على وصفها ، فاكتفى بقوله : « ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه » .

وفى ذلك يقول المرتل : « يروونَ من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نوراً » (مز ٣٦: ٨، ٩) .

إننا هنا لا نرى الإله الذى خلقنا وافتدانا والذى يحيطنا دائماً بالحسنات ويقدم لنا فيض نعمته لنمتلكها ، ولكننا هناك سنراه كما هو ، بل ونجلس معه ونشابهه فى جسد مجده . قال بطرس الرسول : « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١بط ١: ٨) . فما أعظم

الفرح الذى يملأ المؤمن عندما يشاهد رب البرايا يحتفى به ويضمه إلى صدره بمحبة وحنان ! ومَن هو الإنسان الذى يكون موضع اهتمام مبدع الوجود وخالق جميع الكائنات !؟ وأى سرور أعظم من سرور النفس التى تتمتع بجمال الخالق وبجميع كمالاته !؟ وإذا كان يعقوب لبث يخدم لابان مدة أربع عشرة سنة لأجل جمال راحيل ، فأية خدمة يجب أن نقدمها لله لكى يكون لنا حق التمتع بجمال مَن هو أبرع جمالاً من بنى البشر ؟ لهذا يقول داود : « أما أنا فبالبر أنظر وجهك . أشبع إذا استيقظت بشبهك » (مز ١٧:١٥) .

هناك يتمتع المؤمنون بخيرات لا عدد لها وأفراحهم لا تحصى . فليبتهج إذن المؤمنون المدعوون إلى هذه الخيرات العظيمة ، وليتهللوا لأن الله قد خلق السماء لأجلهم . ولتتعزَ قلوبهم ولتتقو برجاء هذه الأفراح الأبدية .

أيها المؤمنون ، يامَن التحفتم بالضيق وتسربلتم بالتجارب ، ابتهجوا الآن ، لأن الله ليس بظالم حتى ينسى تعبكم وعمل محبتكم .. إنكم ستنالون جزاء أمانتكم وجهادكم وأعمالكم الصالحة . وها الكتاب المقدس يبشركم « قولوا للصديق خير ، لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم » .

قد نجد رجال الله فى هذا العالم فقراء ومزدرى بهم ، بينما نجد الكثيرين من الأشرار أغنياء وأصحاب جاه . ولكن غنى هذه الأرض لا يعتد به ولا قيمة له ، وإنما الغنى الحقيقى هو فى المسيح الذى اشترانا بدمه . ومن كان المسيح نصيبه فهو حائز على جميع الأمجاد والمقتنيات الفضلى والسعادة العظمى والهناء والسرور . فأغنياء هذا العالم الأشرار يحل بهم الفقر المدقع فى العالم الآتى ، أما المؤمنون فإنهم يُعطون اسماً عظيماً ومجداً (رؤ ٢:١٧) « هناك يكف المنافقون عن الشغب . وهناك يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر » (أى ٣:١٧،١٨) .

هذا ما جعل بولس الرسول يهتف قائلاً : « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح .. لى اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً » (فى ١:٢١،٢٣) . وهذا ما كان يتمناه داود ويتوق للحصول عليه بقوله : « واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس ، أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى ، لكى أنظر إلى جمال الرب وأتفرس فى هيكله » (مز ٢٧:٤) .

يعلمنا الكتاب المقدس أن مظاهر مجدنا فى السماء تقوم على أربعة أمور :

١ ــ ثياب البهاء والمجد البيضاء التى يلبسها أبناء الله المفديون فى السماء :

وهذا يظهر من رؤيا يوحنا الحبيب حينما رأى الأربعة والعشرين شيخاً الذين يكنى بهم عن كل المفديين . فقد رآهم متسربلين بثياب بيض ، وعلى رؤوسهم أكاليل من الذهب (رؤ ٤:٤) وكذلك رأى جميع المفديين من الشعوب والقبائل واقفين أمام العرش وأمام الخروف ، متسربلين بثيات بيض ، وفى أيديهم سعف النخل . فقال واحد من الشيوخ ليوحنا : هؤلاء المتسربلون بالثياب البيض من هم ومن أين أتوا ؟ فقال له : ياسيد أنت تعلم . فأجابه : هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة ، وقد غسلوا ثيابهم وبيضوها بدم الخروف (رؤ ٧ :٩ــ١٤) فيتضح من ذلك أن الشىء الأول فى مجد القديسين هو أن يلبسوا ثياب المجد والبهاء البيضاء التى تُشير إلى القداسة والطهارة التى حصلوا عليها بالمسيح يسوع قدوس القديسين .

٢ ــ أكاليل المجد :

قال بولس الرسول : « قد جاهدت الجهاد الحسن . أكملت السعى . حفظت الإيمان . وأخيراً وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل . وليس لى فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً » (٢تى ٤:٧،٨) . وقال يعقوب الرسول : « طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة . لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه » (يع ١٢:٢) . وقال بطرس الرسول : « ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى » (١بط ٥:٤) .

لما كان بولس وبرنابا فى ليسترة وشفيا المقعد قدم لهما الجمهور أكاليل وثيراناً كأنهما من الآلهة ، ولكنهما لم يقبلا ذلك ، بل مزقا ثيابهما و لم يسمحا لأولئك الجهلاء أن يقدموا المجد لهما ، لأنهما يعلمان أن مجد الأرض باطل وأكاليلها زائلة (أع ١٤) ، أما إكليل الحياة فمجيد وثمين ، لا يفنى ولا يضمحل . قال بولس الرسول عن المجاهدين من اليونان الذين يركضون فى ميدان الألعاب إنهم يأخذون إكليلاً يفنى ، وأما نحن فإكليلاً لا يفنى (١كو ٢٥:٩) ، غير أنه يلزم أن نركض لكى نناله . فما أسعد المؤمنين الذين يلبسون تلك الأكاليل المقدسة من ملك الملوك ، التى يعطيها لعبيده جزاء لغلبتهم وانتصارهم !

٣ ــ عروش المجد :

قال الرائى : « ورأيت عروشاً ، فجلسوا عليها وأعطوا حكماً . ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم ، فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة » (رؤ ٢٠ : ٤) . إن الأكاليل والعروش إشارة إلى المُلك السماوى مع ملك الملوك ورب الأرباب يسوع المسيح . فالمؤمنون الحقيقيون بيسوع المسيح يلبسهم الثياب البيضاء الزاهية ويكللهم بأكاليل المجد الأبدى ويجلسهم على عروش السماء . فما أعظم مقام المسيحى الحقيقى وما أشرف نسبته .

٤ ــ النور السماوى اللامع :

وأى مجد نبلغ إليه حينما نجلس حول العريس المجيد ونكون كبدور تتألق فى قبة أفلاك المجد والبهاء ، بل حينما نجلس فوق الشمس والكواكب البهية على المتكآت السماوية ، ونتلألأ كأنوار باهرة وكواكب زاهرة وشموس ساطعة وأنوار لامعة حول شمس البر الحقيقى ببهاء عظيم هذا مقداره !؟

فالإنسان ، مهما كان مجيداً وشريفاً على الأرض ، فما هو إلا كعشب يبس ، وحياته كالبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل . أما المجد السماوى فهو أبدى لا ينتهى ولا يزول . وما أعظم الفرق بينهما ! « فالعالم يمضى وشهوته ، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد » (١يو ٢ : ١٧) .

تأمل طويلاً فى ذلك المجد . تصوره أمامك كل حين . ضعه نصب عينيك فى كل وقت . حينئذ تحتقر مجد العالم وتجده كلا شىء . أكد لنفسك دائماً أن حواسك ستحصل فى السماء على اللذة الحقيقية التى لا تنتهى . فلن تمل العين من النظر ولا الأذن من السمع ولا اللسان من التغنى والترنم . اطلب من إلهك أن تمتلك هذه الخواطر فؤادك وأن يسكن الشوق إلى السماء قلبك . وناد هكذا « تعالَى إلىَّ أيتها السعادة الأبدية لأستريح فيك ، لأنى سعيت إلى سعادة العالم فلم أجدها . أما أنت فموجودة حقاً . متى يرتفع الحجاب لأطير إليك ؟ متى تأتى الساعة التى أرى فيها حبيبى الرب يسوع وأسجد عند قدميه فيقيمنى بيده المباركة ويملكنى تلك السعادة امتلاكاً أبدياً ؟

لربنا ولإلهنا المجد دائماً .

العظة الحادية والعشرون

يوم الممات خيرٌ من يوم الولادة

« يوم الممات خيرٌ من يوم الولادة .. نهاية أمرٍ خيرٌ من بدايته »
(جا ٧ : ١، ٨)

لعل المستمعة أو المستمع لهذه الآية يعتبرها لأول وهلة منطقاً معكوساً ، إذ كيف يكون يوم الممات والوفاة والحزن والكآبة والفراق خيرٌ من يوم الهناء والسرور والتبريك ويوم الولادة ؟

ولكن دعونا نتأمل بنعمة الله فى تلك الآية الذهبية التى نطق بها الوحى الإلهى على لسان الحكيم سليمان العظيم .

أولاً ـــ فى الموت « درس وعبرة » :

فالإنسان المغرور والمفتون بقوته أو شبابه أو مركزه أو جاهه أو علمه لا يردعه وعظ ولا عبرة ، إذ أن زخرف الحياة الدنيا يغره ، كما نقول فى المديح : دنيا يغر . الناس زخرف مجدها . ولكن عندما يرى الموت المسلط على رقاب العباد ، والذى لا مفر منه ، إذ قد وضع لجميع الناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة » (عب ٩ : ٢٧) كما يقول معلمنا بولس الرسول .

أقول : عندما نرى عزيزاً رحل أو حبيباً اختطف أو صديقاً انتقل يبدأ الفكر يعمل والضمير يصحو ، وهكذا يتنبه لنفسه فيتخذ من الموت درساً لا ولن ينساه . إذن فالموت درس ، وأى درس . فهو درس الحياة الوحيد .

ثانياً ـــ ليس ذلك فحسب « فالموت أيضاً عظة » :

كثيراً ما نقف على المنابر ونعظ الناس ونكلم الجموع عن الملكوت والحياة الأبدية والخطية والتقوى والصلاح .. إلخ . ولكن للأسف سرعان ما ينسى ، المستمع . ولقد صدق المثل القائل سُمِىَ الإنسان إنساناً لكثرة نسيانه . وكثيراً ما تلقى بذور الكلمة على الأرض المحُجرة ، أو يكون حولها الحسك والعشب الشيطانى ، فلا تنمو « ولكن

عندما يرى ذلك الإنسان الواعظ الصامت ــ وربما صمت أبلغ من كلام ذلك الموت الرهيب ، سرعان ما يرتدع ويتعظ . إذن ، الموت درس ، والموت عظة . وهنا يتبين لنا بوضوح معنى الآية التى كنا نظنها منطقاً معكوساً ، فكنت ياسليمان على حق إذن عندما خيرت وفضلت الموت على الولادة .

ثالثاً ــ فى الموت أيضاً « اكتشاف وإشباع لغريزة حب الاستطلاع » :

فالإنسان بالعلم وصل اليوم إلى القمر ، ويريد أيضاً أن يُشبع نهمه بغريزة حب الاستطلاع ، وهى إحدى الغرائز التى أوجدها الله الخالق فى مخلوقه آدم ونسله .

والمؤمن تواق أن يرى مجد السماء وأرواح القديسين والشهداء ، وينظر ويمتع النظر بذلك الجالس على العرش ، والملائكة حوله وقوف قائلين : قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت . يريد الإنسان أن يكتشف العالم الآخر وحياة الدهر الآتى التى تنظرها الكنيسة . يريد أن يعيش فى الأرض الجديدة والسماء الجديدة . يريد أن يطمئن إلى نهايته والاستقرار الدائم . وطبعاً لا يتأتى ذلك إلا عن طريق الموت « إذ يوم الممات خيرٌ من يوم الولادة ، ونهاية أمرٍ خيرٌ من بدايته » (جا ٧:١،٨) .

رابعاً ــ ليس هذا فقط ففى الموت أيضاً « راحة » :

إذ يقول معلمنا يوحنا الرائى : اكتب هكذا يقول الروح : « طوبى للأموات الذين يموتون فى الرب . إنهم منذ الآن يستريحون من أتعابهم ، وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤:١٣) .

ففى الموت راحة ، وأى راحة ، إذ يستريح هذا الجسد من هذه الحياة ومن تعب المرض ومن مستلزماته ومقوماته .. يرقد بسلام بعد أن أضناه الجهاد والحركة على رجاء القيامة . وبعد القيامة نجد أيضاً راحة ، إذ يقول الرب : « تجدون راحة لأنفسكم » . ويقول الحكيم : « نغبط الذين لم يولدوا بعد » . وذلك لأنه يعلم أن الدنيا دار شقاء وغربة . ألم يقل الرب ، له المجد ، حينما طرد آدم من الجنة : « بعرق جبينك تأكل خبزك وتنبت لك الأرض شوكاً وحسكاً ؟ » (تك ٣:١٩) ويقول بولس الرسول ، لسان العطر وسيف المسيحية القاطع « كل الخليقة تئن وتتمخض معاً » . وقد صدق الشاعر حينما قال : كل من فى الكون يشكو دهره ∴ ليت شعرى هذه الدنيا لمن .

فأين الراحة فى الدنيا ؟ إننا لا نجدها إلا بعد الرحيل والانتقال والرقاد . قالت مارى انطوانيت امبراطورة فرنسا إنى أبحث عن الراحة فلا أجدها . فما أحقر عيش ذوى

التيجان ! وما أشد فعل العواصف بضخام الأشجار ! إذن ، ففى الموت راحة ، ولهذا كان خيراً من الولادة .

خامساً — فى الموت « سلام ، وسلام دائم » :

فالروح ، كما يقول الكتاب المقدس : « يشتهى ضد الجسد والجسد يشتهى ضد الروح » (غل ٥:١٧) . وهكذا توجد حربٌ ضروس تدور رحاها بشدةٍ . حربٌ ثِقال بين الروح والجسد . والجسد يريد شد صاحبه إلى ما فى الأرض حيث عالم المادة والجسد الفانى . فهناك إذن حرب . ولن تُرفع ألوية السلام إلا عندما تفارق الروح الجسد .

وطوبى للروح إذا تغلبت على جسد صاحبها ، وويلٌ للجسد إذا انتصر على الروح . فأيوب الصديق يقول : « بدون جسدى أرى الله » (أى ١٩:٢٦) — وبولس يكلمنا قائلاً : « ويحى أنا الإنسان الشقى . من ينقذنى من جسد الموت هذا » (رو ٧:٢٤) ؟ فلنكن روحانيين لا جسدانيين ، ولننظر للموت بمنظار أبيض نحو السماء ومجد السماء وما ينتظرنا من مجد عتيد أُعد لنا .

سادساً — فالموت كذلك « استيطان أو عودة للوطن » :

فهو الوسيلة الوحيدة والمركبة الآمنة السريعة التى توصلنا إلى الوطن السمائى ، « وليس لنا هنا مدينة باقية » (عب ١٣:١٤) . ويقول الرسول بولس : « فلنثق ونُسر بالأولى أن نستوطن عند الرب » (٢كو ٥:٨) .

وكلنا فى دار غربة ، ولابد للغريب من الرحيل والعودة للوطن الأصلى . ويقول داود النبى : « غريبٌ أنا على الأرض ونزيل مثل سائر آبائى » (مز ٣٩:١٢) . والإنسان منا إذا كان ، مثلاً ، فى بعثة من البعثات أو فى رحلة أو فى أجازة أو فى عمل اضطره لأن يعيش بعض الوقت فى وطن آخر بعيداً عن الأهل والأصدقاء ومسقط الرأس ، نجده دائماً تواقاً إلى العودة ، ويشعر بالحنين إلى الوطن والأهل والعشيرة ، وينتهز الفرصة السانحة الذهبية التى لا تعوض ليعود إلى وطنه . إذن ، ما أحلى اللقاء !

لهذا ، عن طريق الموت لا سواه ، نعود إلى ربنا وإلهنا لنتمتع معه فى عشرة سماوية عظيمة ، إذ يسمع كل من عمل بوصايا الرب يسوع ذلك الصوت الفرح : « نعماً ياعبداً صالحاً وأميناً . كنت أميناً فى القليل فأقيمك على الكثير . ادخل إلى فرح سيدك » (مت ٢٥:٢١) .

له كل المجد والإكرام والسجود من الآن وإلى الأبد آمين .

أهم مراجع الكتاب

١ ــ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .

٢ ــ عظات مختارة — للأب القمص بطرس جرجس

٣ ــ طريق السماء — للمتنيح القس منسى يوحنا

٤ ــ قارورة طيب — للمتنيح القس منسى يوحنا

٥ ــ تفسير الأناجيل المقدسة جـ١ — للأب لويس برسوم الفرنسيسكانى

٦ ــ عزاء المؤمنين — للأرشيدياكون حبيب جرجس

٧ ــ سر التقوى — للأرشيدياكون حبيب جرجس

٨ ــ رسائل النعمة — للأرشيدياكون اسكندر حنا

٩ ــ العظات الجوهرية ــ أو طريق الأمجاد — تأليف الشماس جوهر عطية

١٠ ــ التعزيات الإلهية — تأليف سعد ميخائيل

١١ ــ الحق يحرركم — تأليف د. جاك كوتريل

١٢ ــ مجلة الإيمان — للأرشيدياكون اسكندر حنا

١٣ ــ مجلة الكرمة — للأستاذ حنا أسعد فهمى

١٤ ــ مجلة نهضة الكنائس لسنة ١٩٧٦

فهرست الكتاب

يوم الممات خير من يوم الولادة لأن

+ يوم الممات هو يوم الإنطلاق (فى ١: ٢٣، لو ٢: ٢٩).

+ يوم الممات هو يوم الخلاص من الشر (إش ٥٧: ١، ٢).

+ يوم الممات هو يوم الإنتصار (١كو ١٥: ٢٣ - ٥٥).

+ يوم الممات هو يوم الإكرام (أع ٧: ٥٦، مز ١١٦).

+ يوم الممات هو يوم الرجوع للسماء (٢كو ٥: ١ - ٨).

+ يوم الممات هو يوم الربح العظيم (فى ١: ٩، ١كو ٢: ٩).



مكتبة المحبة :
٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤(٢٠٢) - ٥٧٧٧٤٤٨(٢
تليفون : ٥٧٥٨٢٦٢(٢٠٢) - ٥٧٨٢٩٣٢(٢